الباب الثاني

موقف جمعيات القومية العربية من العقيدة الإسلامية

الفصل الثاني: موقف الجمعيات من أصول العقيدة

المبحث الأول: موقف الجمعيات من التوحيد:

القسم الأول: موقف الجمعيات من توحيد العبادة

القسم الثاني: موقف الجمعيات من توحيد الأديان.

القسم الثالث: موقف الجمعيات من تحكيم الشريعة.

المبحث الثاني: موقف الجمعيات من عقيدة الولاء والبراء

المبحث الثالث: موقف الجمعيات من نبوة الرسولﷺ وسيرته

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني

موقف الجمعيات من أصول العقيدة الإسلامية

المبحث الأول: موقف الجمعيات من التوحيد

وينقسم هذا المبحث إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: موقف الجمعيات من توحيد العبادة

القسم الثاني: موقف الجمعيات من توحيد الأديان.

القسم الثالث: موقف الجمعيات من تحكيم الشريعة.

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

موقف الجمعيات من التوحيد

القسم الأول: موقف الجمعيات من توحيد العبادة

وقبل بيان ومناقشة موقف جمعيات القومية العربية من التوحيد، يلزم أن أبين معنى توحيد العبادة وأهميته بإيجاز، من أجل أن يتضح مقدار وعظم ما وقعت به تلك الجمعيات من مخالفات في الاعتقاد.

معنى توحيد العبادة: هو توحيد الله بأفعال العباد، ومعنى هذا أن يصرف العباد إنسهم وجنهم جميع عباداتهم الظاهرة والباطنة لله وحده.

قال ابن تيمية: (إن حقيقة التوحيد أن نعبد الله وحده فلا يُدعى إلا هو، ولا يخشى إلا هو، ولا يُتّقى إلا هو، ولا يُتَوكل إلا عليه، ولا يكون الدين إلا له، لا لأحد من الخلق)[1].

وكانت بعثة الرسل عليهم السلام إلى الأمم لتحقيق العبودية لله تعالى، والكفر بجميع المعبودات الباطلة؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[2].

---

(١) منهاج السنة النبوية-ابن تيمية-٣/٤٩٠.

(٢) سورة النحل-رقم الآية(٣٦).

ومما يتضمنه هذا التوحيد اعتقاد ألوهية الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ (١).

ويتضمن توحيد العبادة إفراد الله بجميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، فالسجود والعبادة والتوكل والإنابة والتقوى والخشية والتحسب والتوبة والنذر والحلف والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والاستغفار وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً، والطواف بالبيت، والدعاء، كل ذلك محض حق الله لا يصلح، ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب، ولا نبي مرسل(٢).

ويتضمن توحيد العبادة أن يعتقد العباد بأن الله لا يقبل منهم إلا ما جاء به النبي الخاتم ﷺ، قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب: إن الله تبارك وتعالى أرسل محمداً ﷺ إلينا على حين فترة من الرسل، فهدى الله به إلى الدين الكامل، والشرع التام، وأعظم ذلك، وأكبره، وزبدته؛ هو إخلاص الدين لله بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن الشرك.. وجميع العبادة لا تصلح إلا له وحده لا شريك له، وهذا معنى قول لا إله إلا الله، فإن المألوه هو المقصود المعتمد عليه(٣).

---

(١) سورة آل عمران-رقم الآية (١٨).

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي-ابن القيم-١٨٠-١٨١.

(٣) الدرر السنية-عبدالرحمن القاسم-٢/٢٨-دار العربية-بيروت-لبنان-الطبعة الثانية-١٤٠٢هـ.

ويلزم من هذا أن الدين الذي يقبله الله من العباد هو دين الإسلام كما أخبر الله عن نفسه في كتابه حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١).

ويتضمن توحيد العبادة البراءة من الشرك والكفر وأهله، فلا يجتمع في عبد توحيد وكفر، كما لا يجتمع معاداة الكفر وموالاة أهله، وقد قال تعالى عن إبراهيم ﷺ ومن آمن معه ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ ...الخ الآية (٢).

والعبادة التي دعا إليها الرسل، هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة(٣)، فمفهوم العبادة أنها شاملة للحياة كلها كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾(٤). فلم تكن العبادة محصورة في الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وزكاة وحج، ثم يعيش إنسان فيما بين الشعيرة والشعيرة بلا عبادة، إنما الحياة كلها عبادة(٥).

---

(١) سورة آل عمران-رقم الآية(٨٥).

(٢) سورة الممتحنة-رقم الآية (٤).

(٣) العبودية-ابن تيمية-٣٨-المكتب الإسلامي-بيروت-الطبعة الخامسة-١٣٩٩هـ.

(٤) سورة الأنعام-رقم الآية (١٦٢-١٦٣).

(٥) واقعنا المعاصر-محمد قطب-١٦٩.

ومما تجب الإشارة إليه أنّ تعريف العبودية يلاحظ عليه شمولية الكلمة لجميع ما يصدر عن العبد، وأيضاً لجميع ما يبطنه ويخفيه، ومن أبرز ما تفرضه هذه الكلمة أن يبتعد عن العمل المضاد لكلمة التوحيد، والعبودية لله تعالى ألا وهو إشراك الخالق سبحانه وتعالى في العبادة، فقد قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [١]. وقال تعالى:﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [٢].

بعد بيان أهمية توحيد العبادة للبشرية، وما يتضمنه من أصول عقائدية، أذكر أبرز مواقف أعضاء الجمعيات القومية العربية، في توحيد العبادة.

أولاً: اعتبارهم القومية دين العصر واعتناقهم لها:

لقد بلغت أقصى درجات الانحراف في العقيدة عند جمعيات القومية العربية، أنها أنزلت (القومية) مقام الدين الحق، وارتضت لها أن تكون ديناً جديداً، من أجله يكافحون، وبأمره يأتمرون وعليه يوالون ويعادون. والجمعيات القومية كلُّها تبنت هذا المبدأ يقول أحد مؤسسي تلك الجمعيات القومية: (...لقد تركنا مسألة الديانات والعبادات إلى الجوامع والكنائس)[٣].

---

(١) سورة الإسراء-رقم الآية (٢٣).

(٢) سورة النساء-رقم الآية (٣٦).

(٣) الأهرام - ١٠٦٨٢ بتاريخ ١٩١٣/٤/٢٢م . نقلا من كتاب العرب والترك-توفيق برو-٢٦٥.

ويؤكد مصطفى الشهابي أن (الحركات الوطنية فيها ـــ أي البلاد العربية ـــ بدأت على أساس القومية، لا أساس الدين، واشترك في تلك الحركات المسلمون والنصارى من العرب على السواء)[١].

وكان تقرير هذا الوثن (القومية) صادراً عن بعض المسلمين و النصارى العرب مما ضاعف مصيبة المسلمين، حيث أصبح العرب المسلمون في ذلك فريسة سهلة لدهاء الأقلية غير المسلمة في الشرق العربي التي يتوقف مصيرها على انتشار فكرة القومية العربية، وحلولها محل الدين الإسلامي، والتي تستطيع أن تصل عن طريقها إلى مركز الزعامة والقيادة والتوجيه في العالم العربي[٢]. وقد سبق في الباب الأول بيان تأثير أصحاب المعتقدات الباطلة على جمعيات القومية العربية.

فمن مواقف الأعضاء التي تنص على هذا الشرك، قول أحدهم:(إن المستقبل للشعوب القومية المتمسكة بقوميتها ، فلتكن الجنسية العربية ديانة للعرب جديدة، إن الجنسيات آلهة العصور الآتية ، فلِمَ لا نسعى منذ الآن لخلق إله للأمة هو الجنسية العربية، إله يضحي كل من عباده حياته في سبيل نصرته)[٣].

---

(١) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها - مصطفى الشهابي - ٣٤٥.

(٢) العرب والإسلام-أبو الحسن الندوي-٢٠-مكتبة المنارة-مكة المكرمة-الطبعة الثانية-١٤٠٨هـ.

(٣) كيف ينهض العرب-عمر فاخوري-١٣٥-دار الأفاق-بيروت-الطبعة الأولى-١٤٠١هـ.
وانظر: جريدة المفيد رقم ١٤١٩ بتاريخ ١٩١٣/١١/٤م (نقلا من كتاب العرب والترك - ٤٨٠).

إن الاعتقاد بأن الله هو الإله الحق قضيةٌ مُسلّم بها لا تحتاج إلى نقاش، وكانت دعوة الرسل جميعاً إلى إبطال ألوهية غير الله، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[1] وهو حق من حقوق الإله سبحانه وتعالى، كما قال الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: (**يَا مُعَاذُ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟** قَالَ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قَالَ: **فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا..**)[2].

وقد أخبر ربنا عز وجل عن إنكار الهدهد على أهل سبأ حينما أشركوا بعبادة الله، فقال تعالى: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[3].

لقد فطر الله سبحانه جميع مخلوقاته على توحيده وتسبيحه ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن

---

(١) سورة الأنبياء-رقم الآية (٢٥).

(٢) صحيح مسلم-كتاب الإيمان-بَاب الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى التَّوْحِيدِ دَخَلَ الْجَنَّةَ-رقم الحديث(٤٤).

(٣) سورة النمل-رقم الآية(٢٤-٢٦).

مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ (١). فهذا الطائر يدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله، ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض، وأنه هو رب العرش العظيم(٢).

ومن معاني كلمة (الإله) بأنه هو الذي يُطاع فلا يُعصى هيبة له وإجلالاً ومحبة وخوفاً ورجاءً وتوكلاً عليه وسؤالاً منه ودعاءً له(٣). وبعداً عن هذه المعاني التي دلت عليها الآيات تجلي إصرار جمعيات القومية العربية على المبدأ القومي، حيث قالوا: (الجنسية العربية، إله يضحي كل من عباده حياته في سبيل نصرته)(٤)، وأن السيادة والرقي لا يتحققان للأمة العربية إلا إذا أصبح المبدأ العربي ديانة لهم يغارون عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي الكريم، والمسيحيون الكاثوليك على إنجيل المسيح الرحيم، البروتستانت على تعاليم [لوثر] الإصلاحية)(٥). وأن يجعلوا العربية إيماناً ديناً يضحي كل منهم في سبيلِهِ مصالِحَهُ وسعادَتَهُ، حتى حياته(٦).

---

(١) سورة الإسراء-(رقم الآية ٤٢-٤٤).

(٢) في ظلال القرآن-سيد قطب-٢٦٣٩/٥.

(٣) قرة عيون الموحدين-عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ-٢٥-دار الإفتاء-الطبعة الثالثة-١٤٠٤هـ.

(٤) كيف ينهض العرب-عمر فاخوري-١٣٥-وانظر:جريدة المفيد رقم ١٤١٩ بتاريخ ١١/٤/ ١٩١٣م.

(٥) المصدر السابق-١٠٠.

(٦) المصدر السابق-١٠١.

وهذا الوثن الجديد هو قديم في مضمونه فقد أخبر الله على لسان قوم نوح بقولـــه: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾[١] فليس بين شرك قوم نوح وشرك الجمعيات اختلاف إلا في المسميات أما مضمون الأمر فهو واحد.

إن اسم (الإله) الحق لا يوصف به إلا الله وحده قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[٢]. وبالنظر فيما تدل عليه هذه الكلمة نجد أنها مشتملة على الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، فإنها تنفي الإلهية عن غير الله وتوجبها لله[٣].

كما اعترض كفار قريش على دعوة الرسول ﷺ حينما دعاهم إلى (لا إله إلا الله) قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾[٤]. وقال تعالى:﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ ﴾[٥].

إن هذا الشرك (اتخاذ القومية إله) اعتنقه بعض أعضاء جمعيات القومية في الأمـــة، وجهروا بالدعوة إليه مما جعلهم يوالون ويعادون على أساسه، فَيُحب أحدهم أبناء وطنه وينصرهم على غيرهم حتى لو كان الغيرُ من المسلمين وأبناء وطنه من الكافرين... ويرون أن رابطة الوطن أقوى وأعظم من رابطة الدين[٦].

---

(١) سورة نوح-رقم الآية (٢٣).

(٢) سورة محمد-رقم الآية (١٩).

(٣) الإفصاح-الوزير أبو المظفر-انظر: قرة عيون الموحدين-عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ-٢٥.

(٤) سورة ص-رقم الآية (٥).

(٥) سورة الصافات-رقم الآية (٣٥-٣٦).

(٦) حقـــيقة الكفر بالطاغوت-على بن نفيع العلياني-٥٩-دار التربية والتراث-مكة-الطبعة الأولى-١٤١٦هـــ.

وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[١]. قال بعض الصحابة (أنداداً): أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله. والأنداد هي الآلهة التي جعلوها معه، وجعلوا لها مثل ما جعلوا له..فنهاهم الله تعالى أن يشركوا به شيئاً، وأن يعبدوا غيره، أو يتخذوا له نداً وعدلاً في الطاعة، فقال: كما لا شريك لي في خلقكم وفي رزقكم الذي أرزقكم، وملكي إياكم، ونعمتي التي أنعمتها عليكم، فكذلك فأفردوا لي الطاعة، وأخلصوا لي العبادة، ولا تجعلوا لي شريكاً وندا من خلقي[٢]. سواء أكان شجراً أم حجراً أم نظاماً جاهلياً.

وقد كان الرسول ﷺ في سيرته ودعوته للناس يدعوهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، فقد قال رَبِيعَةُ بْنُ عَبَّاد، وَكَانَ جَاهلياً قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ فِي الْجَاهلِيَّةِ فِي سُوقِ ذِي الْمَجَازِ وَهُوَ يَقُولُ: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لا إِلَهَ إِلاّ اللَّهُ تُفْلِحُوا..**)[٣].

وكان تبليغ النبي ﷺ لكلمة التوحيد ودعوة الناس لها إنما هو أمر من الله كما في حديث ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: (**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلاّ بِحَقِّ الإِسْلامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ**)[٤].

---

(١) سورة البقرة-رقم الآية (٢٢) .

(٢) تفسير الطبري-١/١٦٣.

(٣) مسند الإمام أحمد -٣/٤٩٢. والحاكم في المستدرك:٢/٦١٢. وقال:حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

(٤) صحيح البخاري-كتاب الإيمان-بَاب (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ)-رقم الحديث(٢٤).

وقد بَعَثَ الرسول ﷺ مُعَاذ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ الْيَمَنِ، وقَالَ لَهُ: (**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ ...**)[1].

ثانياً: الدعوة إلى أن (القومية العربية) دينٌ:

لم يجهل أعضاء جمعيات القومية العربية قوة تأثير الدين في نفوس معتنقيه، ولهذا أرادوا أن يتمسك المجتمع الإسلامي بمبادئ ومعتقدات الجمعيات كتمسكهم بدينهم الحق.

ولهذا رأت جمعية رابطة الوطن العربي، بأنه يجب إعادة صياغة المبدأ المدون من قبل بشكل آخر: التعصب الديني ليس سوى تطور في المصلحة الشخصية، وإن التعصب القومي شعور عفوي فطري تقريباً كمثل الشعور العائلي الذي يأخذه بعين الاعتبار كل سياسي، والذي يوجب إبعاد كل قضية دينية [2].

لم ترد الجمعية أن يتمسك المسلم بدينه فأوردوا عبارة (تعصب)، ولكن يجب على المسلم أن يتمسك ويتعصب لقوميته. والذي يأتي بدافع من الشعور الفطري العفوي، ونبّه النبي ﷺ على وجوب تمسك المسلم بدينه عندما سئل كما جاء في حديث الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، وجاء فيه: ..فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ

---

(١) المصدر السابق-كتاب التوحيد-بَاب مَا جَاءَ فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ أُمَّتَهُ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ-رقم الحديث(٦٨٢٤).

(٢) يقظة الأمة العربية-١٦٧-١٦٨.

اللـــه قَالَ: (أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِــشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ)[1].

ومـــن هذا الأساس أرادت جمعيات القومية العربية أن يدين الناس بدين آخر وهو (القومية العربية) وينطبق على هذا الدين الجديد ما ينطبق على الدين الإسلامي، من صدق الإيمان، والدعوة إليه، والموالاة من أجله.

ثالثاً: قَسمُ الانتساب إلى الجمعية:

أول ما يطلب ممن يريد الانتساب إلى الجمعية، القسم اليميني، والذي سماه محمد عزة دروزة ــ أحد مؤسسي الجمعيات ــ: (قسم يمين الإخلاص)[2].

وعــبارته هــي: (أقسم بالله، وبشرفي أنني أسعى إلى تأييد غاية (الجمعية) وهــي الاستقلال العربي التام، والسعي إلى جعل الأمة العربية في مصاف الأمم الحية.

أقســم بالله وبشرفي أنني أحافظ على أسرار (الجمعية) وأُفضّل مصلحتها ومصلحة إخواني فيها على كل مصلحة سواها.

---

(١) ســنن الترمذي-بَاب مَا جَاءَ فِي الأَخْذ بالسُّنَّة وَاجْتنَاب الْبدَع-رقم الحديث(٢٦٧٦)- وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وانظر:سنن أبي داود-كتاب السنة-بَاب فِي لُزُومِ السُّنَّةِ-رقم الحديث(٣٩٩١).

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزه-٤٨٩.

أقسم بالله وبشرفي أنني أُطيع قانون (الجمعية) وأوامرها.. والله على ما أقول شهيد)[١]. وهذا القسم فيه من مخالفات توحيد العبادة ما يوضحه التالي:

١. **القسم بالشرف**: وهو شرك بالله تعالى، وقد سَمِعَ ابْنُ عُمَرَ رَجُلاً يَحْلِفُ: لاَ وَالْكَعْبَةِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **(مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ)**[٢].

وجاءت النصوص الشرعية في النهي عن الحلف بغير الله تعالى، ومن هذه النصوص، قول النبي ﷺ: **(أَلاَ مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلا يَحْلِفْ إِلاّ بِاللَّهِ فَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَحْلِفُ بِآبَائِهَا فَقَالَ لاَ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ)**[٣]. وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا: أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب فِي رَكْب، وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيه، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللَّه ﷺ وقال: **(أَلا إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ وَإِلاَّ فَلْيَصْمُتْ)**[٤]. وقَالَ ﷺ أيضاً: **(لا تَحْلِفُوا بِالطَّوَاغِي وَلا بِآبَائِكُمْ)**[٥].

---

(١) أوراق محب الدين الخطيب-حياته بقلمه تكشف لأول مرة- ١٣٩٩هـ. وانظر: جمعية العربية الفتاة السرية-سهيلة الريماوي-ملحق رقم (٢) ص ٢٩٨.و"العراق في الوثائق البريطانية-ترجمة فؤاد قزانجي-١١٧".

(٢) سنن أبي داود-كتاب الأيمان والنذور-بَاب فِي كَرَاهِيَة الْحَلْف بِالْآبَاءِ-رقم الحديث(٢٨٢٩). انظر: سنن الترمذي-كتاب النذور والأيمان-رقم الحديث(١٥٣٥).

(٣) صحيح البخاري-كتاب المناقب-بَاب أَيَّامُ الْجَاهِلِيَّة-رقم الحديث(٣٥٤٩).

(٤) صحيح البخاري-كتاب الأدب-بَاب مَنْ لَمْ يَرَ إِكْفَارَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ مُتَأَوِّلاً أَوْ جَاهِلًا-رقم الحديث(٥٦٤٣).

(٥) صحيح مسلم-كتاب الأيمان-باب من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله-رقم الحديث (٣١٠٨).

وقـــد جعل البخاري في صحيحه باباً بعنوان : (لا يُحْلَفُ بِاللات وَالْعُزَّى ولا بالطواغيت)[١]. ومثله صنع الترمذي: (بَاب مَا جَاءَ فِي كَرَاهِيَةِ الْحَلِفِ بِغَيْرِ اللَّهِ)[٢]. وفي سنن النسائي باب: (التَّشْدِيدُ فِي الْحَلِفِ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى)[٣] وعقد الـــنووي في تـــرجمة أبـــواب صحيح مسلم: (بَاب النَّهْيِ عَنِ الْحَلِفِ بِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى) [٤].

وهكـــذا تناقل أئمة السلف هذا الحكم والتحذير من الوقوع في الشرك. وذكروا الحكمة من النهي عن الحلف بغير الله تعالى، بأن الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه والعظمة في الحقيقة إنما هي لله وحده[٥]. وقد أجمع العلماء كذلك على أن الحلف بغير الله تعالى لا يجوز[٦].

٢. **تعظـــيم قوانـــين الجمعية**: ومن الأمور التي أراد مؤسسو الجمعيات من الناس أن يعتنقوها بموجب اتخاذهم (القومية) ديناً ما جاء في فقرات القسم وهو أن يقول العضو: (أن أطيع قانون [الجمعية] وأوامرها).

---

(١) صحيح البخاري-كتاب الأيمان والنذور-باب رقم (٣٣).

(٢) سنن الترمذي-كتاب النذور والأيمان-٨٧/٤.

(٣) سنن النسائي-كتاب الأيمان والنذور-٢/٧.

(٤) صحيح مسلم-كتاب الأيمان-١٢٦٦/٣. .

(٥) فتح الباري-ابن حجر-٥٤٠/١١.

(٦) انظـــر: إبطـــال التنديد باختصار شرح التوحيد-حمد بن علي بن عتيق-١٢١-مكتبة التوفيق-الرياض-الطبعة الرابعة-١٤٠٠هـــ. وفتح الباري-ابن حجر-٥٤٠/١١.

وظاهر ما في هذا القول من مخالفةٍ لنصوص الكتاب والسنة التي تلزم أن الطاعة المطلقة لا تكون إلا لله وللرسول ﷺ كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (١).

أمّا الطاعة للبشر فهي الطاعة بالمعروف كما قال النبي ﷺ: (**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**) وهذا التوجيه النبوي كان بسبب الحادثة التي وقعت من بعض أمراء السرايا الذين أرسلهم النبي ﷺ للجهاد، وجاء فيها: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ جَيْشًا وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً فَأَوْقَدَ نَارًا؛ وَقَالَ: ادْخُلُوهَا، فَأَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا، وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا فَرَرْنَا مِنْهَا، فَذَكَرُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: (لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا لَوْ دَخَلُوهَا لَمْ يَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَالَ لِلآخَرِينَ: لا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ؛ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ)(٢).

فمن فوائد هذا الحديث أن الأمر المطلق لا يعم جميع الأحوال، لأنه ﷺ أمرهم أن يطيعوا الأمير، فحملوا ذلك على عموم الأحوال حتى في حال الغضب وفي حال الأمر بالمعصية، فبين لهم ﷺ أن الأمر بطاعته ــ الأمير ــ مقصور على ما كان منه في غير معصية(٣).

---

(١) سورة النساء-رقم الآية (٥٩).

(٢) صحيح البخاري-كتاب أخبار الآحاد-بَاب مَا جَاءَ فِي إِجَازَةِ خَبَرِ الْوَاحِدِ-رقم الحديث (٦٧١٦).

(٣) فتح الباري-ابن حجر-٦٥٧/٧. وانظر: شرح السنة-البغوي-٤٤/١٠.

ومن النصوص التي تدل على هذا المفهوم قول النَّبيِّ ﷺ: (**السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلا سَمْعَ وَلا طَاعَةَ**)[١].

وقد يكون قسم الجمعية الذي سبق ذكره يدخل بدلالته تحد ما تضمنه قولُ النبي ﷺ: (..**مَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ**)[٢]. وفي معنى (رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ) قال أحمد بن حنبل: هو الأمر الأعمى كالعصبية لا يستبين ما وجهه، وقيل: هو في تخارج القوم، وقتل بعضهم بعضاً، وأصله من التعمية، وهو التلبيس[٣].

فما ذكر يؤكد على أن جمعيات القومية العربية، تريد أن يدين الناس بالقومية ديناً آخر بكل ما تتضمنه، وقد أُثِرَ عن أعضائها ما يدل على هذا، يقول أحدهم: (العروبة نفسها دين عندنا نحن القوميين العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين، لأنها وجدت قبل الإسلام وقبل المسيحية في هذه الحياة الدنيا مع دعوتها ـــ أي العروبة ـــ إلى أسمى ما في الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات، وفضائل وحسنات)[٤].

---

(١) صحيح البخاري-كتاب الأحكام-بَاب السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِلْإِمَامِ مَا لَمْ تَكُنْ مَعْصِيَةً-رقم الحديث (٦٦١١).

(٢) صحيح مسلم-كتاب الأمارة-بَاب وُجُوبِ مُلَازَمَةِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنِ وَفِي كُلِّ حَالٍ وَتَحْرِيمِ الْخُرُوجِ عَلَى الطَّاعَةِ وَمُفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ-رقم الحديث(٣٤٣٦).

(٣) شرح السنة-البغوي-١٠/٥٣.

(٤) قضية العرب-علي ناصر الدين-١٣٨.

إن الدين المقبول عند الله تعالى هو الدين الذي ارتضاه سبحانه وتعالى لعباده، كما قال تعالى:﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (١) وقال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ (٣).

إن هـــذه الآية ليست خاصة باليهود والنصارى وهي أليق بهم وأحق أن يوصـــفوا بهـــا، ولكن الظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وكان مخالفـــاً له، فـــإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه (وكانوا شيعاً) أي: فرقاً كأهل الملل والنحل ـــ وهي الأهواء والضلالات ـــ فالله قد برأ رسوله مما هم فيه.

وهذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ (٤)...الآية. وفي الحديث: (**نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد**)(٥). فهذا هو الصراط

---

(١) سورة المائدة-رقم الآية(٣).

(٢) سورة آل عمران-رقم الآية(٨٥).

(٣) سورة الأنعام-رقم الآية (١٥٩).

(٤) سورة الشورى-رقم الآية (١٣).

(٥) صحيح مسلم-كتاب الفضائل-بَاب فَضَائِلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام-رقم الحديث (٤٣٦٢).

المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل، من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، الرسل برآء منها، كما قال تعالى:﴿ لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (١).

واعتناق دين القومية العربية، هي شبيهةٌ بما رّغب به أبو طالب مِنْ قَبْلُ زعماءُ الجاهلية العربية الأولى، حينما حضرت أبا طالب الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: (**أَيْ عَمِّ قُلْ لا إِلَهَ إِلاّ اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّه**) فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّه بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِب! تَرْغَبُ عَنْ مِلَّة عَبْد الْمُطَّلب؟ فَلَمْ يَزَالا يُكَلِّمَانه، حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ به: عَلَى مِلَّة عَبْد الْمُطَّلب، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (**لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ**). فَنَزَلَتْ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ (٢).

وفي الدعـــوة إلى هذا الدين الجديد، يؤكد بعض أعضاء جمعيات القومية العربية، على تعظيم مبادئ العروبة التي كانت قبل الإسلام، والادّعاء بأنها أسمى مما في الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات، وفضائل وحسنات.

إن أولى مَنْ يصفُ ما كانت عليه أخلاقُ ومعاملات العرب قبل الإسلام؛ هم الذين عاشوا الجاهلية العربية بجميع مبادئها وخصائصها ومعاملاتها، كوصف جعفـــر بـــن أبي طالـــب، المتحدث الرسمي باسم المهاجرين في الحبشة، قال له

---

(١) تفسير ابن كثير-٣/٣٧٣.

(٢) صحيح البخاري-كتاب المناقب-بَاب قِصَّةِ أَبِي طَالِبٍ-رقم الحديث(٣٥٩٥).

النجاشي: مَا هَذَا الدِّينُ الَّذي فَارَقْتُمْ فيه قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا في دِيني، وَلا في دِيـــنِ أَحَـــدٍ منْ هَذه الأُمَمِ؟ فَقَالَ لَهُ: (أَيُّهَا الْمَلكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهليَّة نَعْبُدُ الأَصْـــنَامَ، وَنَـــأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتي الْفَوَاحشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسيءُ الْجوَارَ، يَأْكُلُ الْقَويُّ منَّا الضَّعيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إلَيْنَا رَسُولاً منَّا نَعْرفُ نَسَبَهُ وَصدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إلَى اللَّه لنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا منْ دُونه؛ منَ الْحجَارَة، وَالأَوْثَان، وَأَمَرَنَا بصدْق الْحَديث، وَأَدَاء الأَمَانَـــة، وَصلَة الرَّحم، وَحُسْن الْجوَار، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارم، وَالدِّمَاء، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحشِ وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتيم، وَقَذْف الْمُحْصَنَة، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بالصَّلاة وَالزَّكَاة وَالصِّيَام ..)[1] .

وقد اعترف الصحابة رضي الله عنهم بنعمة الإسلام عليهم، فحينما أَفَاءَ اللَّـــهُ عَلَى رَسُوله ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ♦ قَسَمَ في النَّاسِ في الْمُؤَلَّفَة قُلُوبُهُمْ، وَلَمْ يُعْط الأَنْصَارَ شَيْئًا، فَكَأَنَّهُمْ وَجَدُوا إذْ لَمْ يُصبْهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ: (يَا **مَعْشَـــرَ الأَنْصَار أَلَمْ أَجدْكُمْ ضُلالاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بي**)، كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ؛ قَالَ: مَـــا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تُجيبُوا رَسُولَ اللَّه ﷺ، قَالَ كُلَّمَا قَالَ شَيْئًا، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ...][2] ـــ الحديث ـــ.

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل-١/٢٠١-٢٠٢.

♦ حـــنين: مكـــان قريـــب من مكة، وقيل: هو واد قبل الطائف، وقيل: واد بجنب ذي المجاز، وقال الواقـــدي: بيـــنه وبـــين مكة ثلاث ليالٍ، وقيلً: بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً. ينظر: (معجم البلدان-ياقوت الحموي-حرف الجيم).

(٢) صحيح البخاري-كتاب المغازي-بَاب غَزْوَةِ الطَّائف-رقم الحديث(٣٩٨٥).

ولقـــد ساوى أعضاءُ جمعيات القومية أبرزَ مبدأ (الوحدة العربية) اجتمعوا علـــيه ـــ عند تأسيسه للجمعيات ـــ بالإيمان بالله تعالى، فمما قالوا: (الوحدة العربـــية يجـــب أن تنـــزل من قلوب العرب أينما كانوا منـــزل وحدة الله من قلوب قوم مؤمنين)[١].

ولتعظـــيمهم لمبادئ القضية العربية جعلوها كالإيمان بالله، فقالوا:(القضية العربـــية لن تكون أبداً عند العربي المؤمن الحر العاقل، الشريف، الصالح، الخير، الأبي، المترفع، إلا قضية إيمان، إيمان بالوطن للوطن، كقضية الإيمان بالله لله ليس غير)[٢].

وهذا من انحرافات الجمعيات المتعلقة بتوحيد العبادة لله تعالى، وقد ضرب الله لنا مثلاً بمن يساوي عبادة الله والإيمان به، بعبادة غيره من الأصنام، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾[٣].

فهـــذا المثال الذي ضُرِب هو مثل عام يضرب، لا حالة خاصة ولا مناسبة حاضـــرة، ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ﴾ هذا المثل يضع قاعدة، ويقرر حقيقة:

---

(١) مجلة العربي-عدد يناير ١٩٥٩.

(٢) مقدمة كتاب قضية العرب-علي ناصر الدين-١٩-بيروت-الطبعة الثالثة-١٩٦٣.

(٣) سورة الحج-رقم الآية (٧٣-٧٤).

أن كل من تدعون من دون الله من آلهة مدعاة. من أصنام وأوثان، ومن أشخاص وقيم وأوضاع، تستنصرون بها من دون الله، وتستعينون بقوتها وتطلبون منها النصر والجاه.. كلهم ﴿ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ ﴾ [١].

رابعاً: اعتبار الدين إنتاجاً عربياً وفترةً تاريخيةً:

إن مما يلاحظ في صياغة مبادئ جمعيات القومية العربية التهجم الواضح على الدين الإسلامي، فمن خلال بحثي عن تنظيم الجمعيات لم أعثر على نصوص تقدح أو تنتقص العقائد النصرانية أو الفرق المخالفة للدين الإسلامي بالقدر الذي وجد ضد الإسلام، وهذا يؤكد على أن مبادئ الجمعيات القومية قد قصد بها الغزو المباشر لهذا الدين.

ومن أمثلة الطعن بالدين أن أعضاء الجمعيات يعتبرون الإسلام وجهاً آخر للعروبة، قالوا: (الإسلام والعروبة وجهان لمادة واحدة. والإسلام نبع من العرب وعبر عن حقيقتهم في طور من أطوار تاريخهم...)[٢]؛ ومن هذا المبدأ فَهُمْ يرون أن الاستهانة بالإسلام أسلوب ومدخل إلى الاستهانة بالعروبة، لأن الإسلام أعظم إنتاج عربي تفخر به الأمة العربية، فإذا هان الإنتاج الضخم فان المنتج يهون أيضاً[٣].

ولن يرضى مؤسسو جمعيات القومية عن حقيقة الأمة إلا إذا نُفِخَت في أفرادها روح القومية، يقول أحدهم في تعريف الأمة: (الأمة التي نعنيها هي

---

(١) في ظلال القرآن-سيد قطب-٤/٢٤٤٤.

(٢) حزب البعث العربي-جلال السيد-٣٤.

(٣) المصدر السابق-٣٦.

الجماعات التي فيها روح القومية، وأما إذا طارت هذه الروح من الأشباح فإن الأمر يكون كما ذكرنا من الشتات وعدم الجامع. فضالتنا التي ننشدها اليوم هي تلك الروح التي صارت بها الأمم أمماً، فمتى ظفرنا بها صرنا أمة بأقرب من لمح البصر. وما دامت تلك الروح نائية عنا فما نحن إلا أشباح، لا يشغل جموعنا حيزاً في هذا الوجود ، ولا يأخذنا نصيبنا في نظر العالم السياسي)[١].

إن اعتبار الإسلام نَبَعَ من العرب بمعنى بَعْثِ النبي ﷺ فيهم وإنزال القرآن على لغتهم، وقام من آمن منهم بالدعوة إليه، فهذه قضية مسلم بها، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥ ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[٤].

فليس للعرب فضل بدون هذا الدين، وأما أن يعتبر الإسلام تعبيراً عن حقيقة العرب لفترة تاريخية خصيصة بهم، فهذا غير صحيح إذ أن العرب بأجمعهم لا يعتبرون معبرين عن الإسلام، حيث أن من العرب من كفر بالإسلام، وأعرض عن هديه وناصبه العداء، فنشبت حروب بين الرسول ﷺ وأتباعه من جهة وبين العرب الكافرين من جهة أخرى، كما قال أبو سفيان بن

---

(١) جريدة المفيد رقم ١٣٧٠بتاريخ ١٩١٣/٩/٨م (نقلا من كتاب العرب والترك - توفيق برو- ٤٨١.

(٢) سورة يوسف-رقم الآية(٢).

(٣) سورة الشعراء-رقم الآية (١٩٥).

(٤) سورة الشورى-رقم الآية(٧).

حرب ــ وكان كافراً ــ أثناء مقابلته لهرقل وسؤال هرقل: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَــمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ[١].

والإسلام قد بلّغ به نبيُ ﷺ من العرب، ولكنه ليس خاصاً بالعرب، وإنما هو دين للعالمين جميعاً، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[٢]. وثبت في الحديث أن رَسُول اللَّه ﷺ قَالَ: (**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِه خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ..**][٣]. وفي الحديث الآخر قال: (**فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِستٍّ..** ــ منها ــ: **وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**)[٤].

فهذه النصوص تدل على أن الله أرسل نبيه محمداً ﷺ رحمة لجميع العالمين، مؤمــنهم وكافرهم، فأما مؤمنهم فإن الله هداه به، وأدخله بالإيمان به، وبالعمل بمــا جــاء من عند الله، الجنة. وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان يترل بالأمم المُكذِّبة رُسُلَها من قبله[٥].

---

(١) صحيح البخاري-بَاب بَدْءُ الْوَحْيِ-رقم الحديث(٦)-.

(٢) سورة الأنبياء-رقم الآية(١٠٧).

(٣) صحيح مسلم-كتاب المساجد ومواضع الصلاة-رقم الحديث(٨١٠).

(٤) المصدر السابق-رقم الحديث(٨١٢).

(٥) تفسير الطبري-١٠/١٠٦. وانظر:
شرح صحيح مسلم-النووي-٥/٥.

ومن استقراء التاريخ نجد أن العرب لم يكن لهم أمة ينتمون إليها إلا بعد اعتناقهم هذا الدين، كما قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ (١). وليس كما تدعيه جمعيات القومية، بأن الأمة التي تريدها الجمعيات، هي الجماعات التي فيها روح القومية.

لما كانت روح القومية موجودة في الناس، كان الناس في ضلال كما قال الرسول ﷺ في الحديث السابق (**أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَّلاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي..**). فهذه الدعوةُ التي تبنتها جمعيات القومية، دعوة ضلالٍ بعد هدى، ضلالٍ في العقيدة والعمل والأخلاق والاجتماع، وفوضى فكرية هائلة، وتفسخ أخلاقي واجتماعي لا يقل ـــ في العواصم العربية الكبرى ـــ عن التفسخ الخلقي والاجتماعي في الجاهلية الأولى، وقد يفوقه بالتنظيم والانتشار، وبأنه قد صار فناً وصناعة وتجارة(٢).

خامساً: إقامة احتفالات بمناسبة مولد النبي ﷺ:

من المخالفات لتوحيد العبادة عند جمعيات القومية، أنها كانت تقيم احتفالات بمناسبة المولد النبوي، وكانت الجمعيات تستغل هذه الاحتفالات التي تدعي شرعيتها من أجل استقطاب بعض المسلمين والتأكيد على مشروعية مبادئ جمعيات القومية.

---

(١) سورة آل عمران-رقم الآية(١٠٣).

(٢) العرب والإسلام-أبو الحسن الندوي-٨٢. وسبق الحديث في الفصل الأول التعريف بالأمة.

وقـــد سبق بيان تبني جمعيات القومية الدعوةَ إلى الرابطة العثمانية، خلال الاجتماعات العامة وحفلات الخطابة والاحتفالات في شتى المناسبات، وبخاصة مـــنها ذكرى المولد النبوي السنوية التي كان يقيمها المنتدى، كان يدعى إليها أبناء الترك من رجالات السياسة والأدب والاجتماع[١].

ويتولى أعضاء جمعيات القومية العربية، الدعوة والحديث بهذه المناسبة عن مبادئ جمعياتهم، فمما قالوا في خطب ذكرى المولد: في مثل هذا اليوم يولد النبي العربي القرشي مقيم الأسس الديمقراطية[٢].

وذكرت صحيفة القبلة ـــ وهي من الصحف القومية ـــ أن من أدلة عمق الـــتآلف والتآخي بين أعضاء الجمعيات القومية، ما جاد به الأعضاء النصارى واســـتقبالهم المولد النبوي بالقصائد التي لا يكاد يضارعهم فيها كثير من شعراء المسلمين[٣].

وســـار عفلق في حزبه، على منهج الجمعيات التي سبقته، فقد ألقى عفلق محاضرة بذكرى الاحتفال بذكرى المولد، وكتب كراساً سماه (ذكرى الرسول العربي)[٤].

---

(١) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني-توفيق برو-٢٦٤.

(٢) مختارات المفيد-العدد ٩١٩-٢٩-شباط-١٩١٢-ص:٤٦.

(٣) جريدة القبلة-العدد٥٢-السنة الأولى-بتاريخ ١٣٣٥/٤/١٩هـــ-ص:٢.

(٤) أوكار الهزيمة-هاني الفكيكي-٧٩. انظر عن أصل المحاضرة: في سبيل البعث-ميشيل عفلق-٤٢-٥٢.

كمـــا كان لأعضاء جمعيات القومية العربية، المشاركة الفعلية في حفلات أعـــياد المـــيلاد، فمن ذلك ما وصف أحد الحضور مراسيم الاحتفال بالمولد في عهد الملك فاروق[١]، فذكر من الحضور بعض أعضاء جمعيات القومية العربية، من أمثال: جميل مردم بك، يوسف ياسين[٢]، تحسين العسكري[٣][٤].

وقـــد تناقلت المجلات التي تبنت مبادئ جمعيات القومية العربية الدعوة إلى الاحتفال بالمولد، فمن هذه المجلات مجلة المنار، والذي جاء فيها: هذا الاحتفال مـــن المواسم الحادثة في الملة.. وقد تقبله المسلمون كافة بقبول حسن، وتنافس الملوك والأمراء وسائر الطبقات بالاحتفال به..

وصـــار هـــذا الموســـم الشـــريف في مصر ينبوع المنكرات ومحط رحال الفواحـــش، واتسعت بذلك دائرة الموالد فصاروا يقيمون لكل شيخ مُعْتَقَد من الأمـــوات، مولداً يحتفل به الأهلون.. وإنما نذكر رأينا في الاحتفال بالمولد وما

---

(١) الملـــك فـــاروق بن أحمد فؤاد بن إسماعيل الخديوي ملك مصر، ولد عام ١٣٣٨هـــ (١٩٢٠) بالقاهـــرة . تعلم في فرنسا وبريطانيا، تولى ملك مصر سنة ١٩٣٦ (١٣٥٤هـــ). اتسم حكمه بالفســـاد، والاســـتهتار، والاستبداد، وبالصراع المتواصل مع حزب الوفد. أطاحت به ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ (١٣٧١هـــ) بقيادة جمال عبد الناصر، فتخلى عن العرش ولكن رجال الانقلاب ما لبـــثوا أن أطاحوا بالنظام الملكي، وتم تحويل مصر إلى جمهورية. وبذلك انتهى حكم سلالة محمد عـــلي لمصر. عاش منفيا في أوروبا حتى وفاته بروما سنة ١٣٨٤هـــ (١٩٦٥). انظر: الإعلام- خير الدين الزركلي-٥/١٢٩.

(٢) انظر الترجمة رقم (٧٣).

(٣) انظر الترجمة رقم (١٠).

(٤) تـــاريخ الاحـــتفال بـــالمولد النـــبوي من عصر الإسلام الأول إلى عصر فاروق الأول-حسن السندوبي-١٩٨-الطبعة الأولى-الاستقامة-القاهرة-١٣٦٧هـــ.

ينبغي له وفيه، وهو: (يجب السعي في تطهير الاحتفال من الفواحش والمنكرات، إن قصص المولد النبوي الذي سمعناها ورأيناها كلها مشتملة على ما لا يصح وخالية عن أهم ما ينبغي أن يكون فيها وهو التنويه بالإصلاح العظيم الذي حصل في العالم على يد صاحب المولد ﷺ، بانتداب طائفة تحسن الخطابة من مجتمعات الاحتفال فإن الخطب أوقع في النفوس وأشد تأثيراً في القلوب)[١].

ويلاحظ أن هذا النص ليس فيه إنكار على أصل الاحتفال بالمولد، وإنما الإنكار على الأفعال المستقبحة التي تفعل فيه، مما يوجب تهذيب الاحتفال بالمولد من الأمور المذكورة[٢].

ليس من شأن البحث أن يستطرد في بيان نشأة بدعة الاحتفال بالمولد النبوي، والتفصيل في تاريخه والوقوف على حال الأمة عند الوقوع في حمأة الجاهلية والابتداع، وجمع فتاوى علماء الأمة بتحريم هذه البدعة، كقول ابن تيمية: ..من البدع اتخاذ مولد النبي ﷺ عيداً. مع اختلاف الناس في مولده، فإن هذا لم يفعله السلف، مع قيام المقتضي له وعدم المانع فيه لو كان خيراً. ولو كان هذا خيراً محضاً، أو راجحاً لكان السلف رضي الله عنهم أحق به منا، فإنهم كانوا أشد محبة لرسول الله ﷺ وتعظيماً له منا، وهم على الخير أحرص[٣].

---

(١) مجلة المنار-عدد ١٩-السنة الثانية-بتاريخ ١٣١٧/٣/١٤هـ.ص:٢٨٩-٢٩١.

(٢) وردت نصوص في مجلة المنار تستنكر الاحتفال بالمولد، وقد وردت في الأعداد المتأخرة، كالعدد ٢٩وفي صفحة ٦٦٤-٦٦٨.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم-ابن تيمية-٢/٦١٥.

كثيرة هي الدراسات[١] والأبحاث التي تناولت هذه القضايا فأجادت وأفادت فيها، وإنما غايتي هنا بيان موقف جمعيات القومية العربية من هذه البدعة، ودعوة المسلمين لها، ومسايرة التخطيط الصليبي في استبدال الحق بالباطل وشغل الناس عن السنة بالبدعة، كما فعل المستعمر الصليبي عند احتلال مصر، فقد دعم نابليون إقامة هذا المولد بمبلغ ثلاثمائة فرنك فرنسي معاونة منه، وأمر بتزيين البلد كالعادة، واجتمع الفرنسيون يوم المولد[٢].

إن من ضرورات نقد جمعيات القومية العربية، أن يتساءل الإنسان: أليس من الواجب أن تقوم جمعيات القومية بالدعوة إلى الإيمان الصادق بنبوة النبي ﷺ وإحياء سنته، وترغيب الناس بالإقتداء بهداه، ونبذ البدع والاعتصام بحبل الله المتين، من خلال هذه الندوات والمحاضرات والأمسيات التي تقيمها الجمعيات؟ ولا يكون هذا في وقت محدد أو زمن معين، إنما في كل شؤون برامجها.

---

(١) انظر: ١- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم-ابن تيمية-٢/٦١٥.
٢-القول الفصل في حكم الاحتفال بمولد خير الرسل-إسماعيل الأنصاري.
٣- السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات- محمد عبدالسلام خضر الشقيري -١٣٨-١٣٩- دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-١٤٠٠هـ.
٤- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار-أحمد المقريزي-١/٤٩٠-دار صادر-بيروت.
٥- الرد القوي على الرفاعي والمجهول وابن علوي وبيان أخطائهم في المولد النبوي-حمود التويجري.

(٢) عجائب الآثار-عبدالرحمن الجبرتي-٢/٢٠١-دار الجيل-الطبعة الثانية-١٩٧٨.انظر: تاريخ الحركة القومية-عبدالرحمن الرافعي-١/٢٥٤-٢٥٥.

القسم الثاني: موقف الجمعيات من توحيد الأديان:

تضامناً مع المبدأ العام، الذي ظهر في فترة ما قبل تأسيس الجمعيات القومية، بتقديس (الحرية)، فإن أعضاءها قد عمّموا هذا المبدأ على العقيدة الدينية، وأصبحت عبارات (حرية الاعتقاد، والتسامح الديني، وتوحيد الأديان) تنطلق من مقر الجمعيات، وتنادي بها مجلاتهم وتروج لها صحفهم اليومية داعية لهذا المبدأ بين المسلمين.

والقسم الأول من مبحث موقفهم من التوحيد، سيقتصر على مناقشة مواقف جمعيات القومية العربية تجاه ما أسموه بالتسامح الديني ونبذ التعصب المبني على أصول دينية، كما زعموا وقالوا بأنه يجب على العربي أن (يدع كل إنسان ومعتقده ، فلست على أحد بمسيطر ، والناس أحرار أن يدينوا بما يشاؤون ، ويتعصبوا بما يريدون ..)[1].

وقبل كل شيء لا بد من الإشارة إلى قضية منصوص عليها في كتاب الله، وهي؛ أن جميع الرسالات تدعو إلى عبادة الله كما قال جل جلاله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ ﴾[2].

---

(١) جريدة المفيد برقم ١٣٧٩ وتاريخ ١٩١٣/٩/١٨م . مقال: مصطفى الغلاييني البيروتي (نقلا من كتاب العرب والترك - توفيق برو -٤٨١.

(٢) سورة النحل-رقم الآية(٣٦).

فكانت دعوة الرسل إلى التوحيد قبل أن يدعوا إلى شيء قبله، فهم وإن اختلفت شرائعهم في تحديد بعض العبادات والحلال والحرام لم يختلفوا في الأصل الذي هو إفراد الله سبحانه بتلك العبادات افترقت أو اتفقت[١].

وأن الكتب التي أنزلت على الرسل فيها الهدى والنور، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ ﴾[٢]. وقال تعالى عن الإنجيل:﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[٣].

ففي هذه الآيات يخبر ربنا عز وجل بأنه قد أنزل الإنجيل إلى عيسى مصدقاً للكتب التي قبله، وبياناً لحكم الله الذي ارتضاه لعباده المتقين في زمان عيسى وموعظة لهم[٤].

ومما ورد ذكره أيضاً في القرآن أن الدين الذي ارتضاه الله هو الدين الإسلامي، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾[٥].

---

(١) معارج القبول-حافظ بن أحمد الحكمي-١/٢٩٤.

(٢) سورة المائدة-رقم الآية (٤٤).

(٣) سورة المائدة-رقم الآية (٤٦).

(٤) تفسير الطبري-٦/٢٦٤.

(٥) سورة المائدة-رقم الآية(٣).

وقد نسخ الله الكتب السابقة بكتابه الخاتم، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[١]. فأصبح دين أهل الكتاب وغيره من الأديان باطلة بمبعث رسول الله ﷺ[٢].

وقد جَاءَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب ﷺ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه إِنِّي مَرَرْتُ بِأَخٍ لِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَكَتَبَ لِي جَوَامِعَ مِنَ التَّوْرَاة، أَلا أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ؟ قَالَ: فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُول ﷺ، قَالَ: عَبْدُ اللَّه فَقُلْتُ لَهُ أَلا تَرَى مَا بِوَجْه رَسُول اللَّه ﷺ؟ فَقَالَ عُمَرُ: رَضِينَا بِاللَّه رَبًّا وَبِالإِسْلامِ دِينًا وَبِمُحَمَّد ﷺ رسولاً، قَالَ: فَسُرِّيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَالَ: **(وَالَّذي نَفْسي بِيَده لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَى ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ، وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الأُمَمِ، وَأَنَا حَظُّكُمْ مِنَ النَّبِيِّين)**[٣].

وقد أجمع علماء الإسلام على أن دين الإسلام هو الدين الذي لا دين لله في الأرض سواه، وأنه ناسخ لجميع الأديان قبله، وأنه لا ينسخه دين بعده أبداً، وأن من خالفه ممن بلغه كافر مخلد في النار أبداً[٤].

وبعد هذه الإشارة الموجزة، فمن منطلق المساواة والتعايش السلمي في البلاد العربية، وتحقيقاً لمحاربة العدو المشترك (المستعمر)، نادت جمعيات القومية

---

(١) سورة المائدة-رقم الآية(٤٧).

(٢) انظر:أحكام أهل الذمة-ابن القيم-١/٧١.

(٣) مسند الإمام أحمد-٣/٤٧١ عن عبدالله بن ثابت ﷺ.

(٤) الإجماع-ابن حزم-١٦٧-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان.

العربـــية الدعوة إلى حرية التدين وأن تتعايش الأديان السماوية الثلاث بسلام، وهذا هو مفهوم (التسامح الديني).

إن أول جمعـــية من الجمعيات القومية العربية التي نادت بالتسامح الديني، هـــي: الجمعية العلمية؛ التي سعت إلى إبراز فكرة القومية العربية في إطار عام، أساسه أن للعرب عامة ـــ مسيحيين ومسلمين ـــ تراثاً مشتركاً وحضارةً عريقةً تمـــتد جذورهـــا إلى مـــا قبل الإسلام ولا بد من التنقيب عنها والكشف عن جذورها التاريخية والعمل على تطويرها لتساير روح العصر[١].

وقـــد نشرت هذا المفهوم من خلال مجلتها، التي جاء فيها، (لا بد من أن تكـــون في معابدنـــا إسلاماً وأرمن ودروزاً وموارنة وروماً وكاثوليكاً ونصيرية وسرياناً، وغير ذلك وفي ميادين الأعمال لنا راية واحدة؛ استبداد الحال لنا إنما يكون بالاجتماع حولها بالغيرة والحمية والصداقة)[٢].

وعلى هذا النهج سار منظرو الجمعيات القومية العربية في الأمة الإسلامية بالدعوة إلى إحلال العقيدة القومية محل الدين الإسلامي، فقالوا: لا تفترقوا فرقاً وطوائـــف.. بـــل الجميع عرب وفي العرب وللعرب..وإن العصر الحاضر قيام الجماعات على أسس القومية دون تفريق في الدين والمذهب[٣].

---

(١) تـــاريخ العـــرب الحديث-عبدالوهاب أحمد عبدالوهاب-٣٥٥-دار القلم -دبي-الطبعة الأولى-١٤٠٧هـــ.

(٢) افتتاحية ج٦، مجلة الجنان ١٨٧٤-ص١٨١-١٨٣- نقلا عن كتاب سليم البستاني -١٢٢.

(٣) مختارات المفيد-مقال: عبدالغني العريسي - ١٦٤و٢٥٧.

واعتبر أعضاء الجمعيات القومية اجتماع المسلمين والنصارى على هذه المبادئ القومية، هو من دلائل الوفاق بين الفريقين. وقالوا: إن هذا الاتفاق سهل فإن دين الإنجيل يعلمنا التساهل إلى حد أن ينسى الإنسان نفسه في مصلحة قريبه، ودين الإسلام يجعل الفقير شريكاً للغني في ماله إذ يفرض له عليه نصيباً منه[١].

وقد تولت الجمعيات القومية نشر هذا الأمر في الأمة، فقد نشرت الجمعية الثورية العربية منشوراً تحت عنوان (إلى العرب من أولاد قحطان) ـ مما جاء فيه ـ: « أيها العرب: ..ليكن المسلمون والنصارى واليهود منكم يداً واحدة وتتكلمون بلغة واحدة فكونوا أيضاً أمة واحدة ويداً واحدة ولا تتفرقوا تبعاً لمفاسد وغايات المفسدين الذين يتظاهرون بالإسلام والإسلام برئ منهم..

فكلكم عيال الله، والدين لله وحده ... وأنتم أيها العرب من النصارى والموسويين ضعوا يدكم في يد إخوانكم المسلمين العرب.. فإن العرب المسلمين إخوانكم في الوطنية .. فليكن رائد الطرفين التساهل والسعي في إزالة هذه التعصبات الذميمة .. »[٢].

ويعتبر أعضاء جمعيات القومية العربية التسامح الديني والحرية الدينية من أهم مكاسب العرب، الذين هاجروا من الدولة العثمانية، حيث احتك المهاجرون بأقوام يعظمون الجامعة الوطنية ويرفعونها فوق كل شيء ولا يرون في

---

(١) حوادث وخواطر-مذكرات شبلي شميل-٢٦٠-دار الحمراء-بيروت-الطبعة الأولى-١٩٩١.

(٢) إيضاحات-جمال باشا ٢٤-٢٨ مطبعة الطنين - ١٣٣٤.

اختلاف العقائد ما يحول دون تآلفهم في سبيل المصلحة القومية وتعاونهم على ما فيه الخير العام، وقابلوا ذلك بحال أوطانهم الأصلية وما يسودها من شقاق وتخاذل، فتحركت في نفوسهم عاطفة النفور المذهبي[١].

فمن أمثلة أقوال أهل المهجر، قول الريحاني[٢]: أليس في وسع المرء أن يعيش في هذا العالم دون أن تطبع روحه بطابع الملة وتصبغ بصبغة الطائفية[٣].

وقد استمرت الدعوة إلى التسامح الديني عند أعضاء جمعيات القومية العربية، فبعد أن قامت الحكومة العربية الأولى في دمشق، وتولى إدارتها أعضاء جمعيات القومية العربية، أعلن فيصل بن الحسين عن سياسة حكومته الأولى، فقال: ليعلم جميع الناس أن حكومتنا قد تأسست على قاعدة العدالة والمساواة، فهي تنظر إلى جميع الناطقين بالضاد على اختلاف مذاهبهم وأديانهم نظراً واحداً. لا تفرق في الحقوق بين المسلم والمسيحي والموسوي[٤].

فقامت هذه الدولة العربية على المبدأ العلماني ومن المنطلق الجاهلي، وقد قال عنها أعضاء الجمعيات: (كان لكل عربي الحق بأن يتولى عملا في الحكومة على حسب ما عنده من معرفة ومن خبرة بذلك العمل .. ولم يكن للأديان ولا للطائفيات اعتبار في تولي مناصب الحكومة ، فقد كان في المناصب الكبرى

---

(١) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث-أنيس المقدسي-٢٨٤.

(٢) انظر الترجمة رقم (٨).

(٣) الريحانيات-أمين الريحاني-١/٣٤ و٣٧.

(٤) مؤامرة الغرب على العرب-ياسين سويد-. وانظر نص خطابه:نهر الذهب من تاريخ حلب-٣/ ٦٦٢.

السني والشيعي والعلوي والدرزي والماروني والأرثوذكسي والكاثوليكي والبروتستانتي ، وجميعهم يخدمون في حكومة عربية ويعملون لقضية العروبة)[١].

كما أعلن مؤسس حزب البعث مبدأ الدعوة إلى التسامح بين الأديان حيث قال: حزب البعث ينظر إلى جميع الأديان نظرة واحدة من حيث التكريم والاحترام، ويعتبر حرية الاعتقاد الديني شيئاً مقدساً[٢]. فالتقديس الذي عناه ليس لذات الدين، وإنما للحرية الذي من خلالها يحصل التكريم والاحترام.

وبهذا المبدأ قررت جمعيات القومية العربية، بأن الانتساب إليها وتبني المبادئ القومية حق لكل عربي. لأنها كما يقول أعضاؤها: « لا تفرض على أصحابها عقيدة دينية معلومة، بل تتسع لكل عربي مهما يكن دينه أو يكن مذهبه الديني »[٣].

فالجمعيات القومية لا تفرض على أصحابها والمنتسبين إليها مذهباً دينياً أو عقيدة معينة إلا العقيدة القومية الجاهلية، قال مصطفى الشهابي: "إن الجمعيات القومية تشمل كل عربي أياً كانت ديانته أو طائفته أو عنصريته. وجميع العرب

---

(١) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها -مصطفى الشهابي-١٢٢.

(٢) حزب البعث العربي الإشتراكي-مصطفى دندشلي-٦٢. وانظر:في سبيل البعث-عفلق-١٤٣.
ولا تزال دعوة التسامح الديني من أساسيات مبادئ القوميين، فقد عقدوا مؤتمراً في لبنان سموه (المؤتمر القومي الإسلامي) وذلك عام ١٩٩٤، وكان من أبرز معالم هذا المؤتمر الدعوة إلى التسامح، وإقامة حوار مسيحي إسلامي عربي، لمنع المحاولات الدائبة لاختراق الوحدة العربية.انظر: مجلة المجتمع الكويتية-العدد١١٢٣-١٤١٥/٥/٢٧هـ

(٣) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها - مصطفى الشهابي - ٣٤٧.

والمستعربين سواسية في عقيدة القومية العربية ، سواء أكانوا مسلمين من سنيين وشيعيين ودروز وعلويين وإسماعيليين ، أم كانوا نصارى من موارنة وأقباط.

ولذلك بدأت الحركات الوطنية فيها ـ البلاد العربية ـ على أساس القومية ، لا أساس الدين واشترك في تلك الحركات المسلمون والنصارى من العرب"[1].

ومن أمثلة التسامح الديني المزعوم لدى الجمعيات القومية في الانتساب إلى الجمعيات، أنه قد حدث في عام ١٩١٣م، أن رئيس فرع حزب اللامركزية في سورية كتب إلى مركز الحزب في القاهرة يقول: إنه وزملاءه في الفرع قرروا أن لا يقبلوا انتساب أي شخص لا يدين بالإسلام.

وبتاريخ ٢٥ آب ١٩١٣ بعث حقي العظم سكرتير حزب اللامركزية (مركز الحزب) رسالة جوابية معبراً فيها عن رأيه ورأي رئيس الحزب رفيق العظم، قائلاً في رسالته الجوابيه: (إن المسيحيين هم إخواننا في الجنسية واللغة والتابعية والمصالح...وإن حزبنا مؤلف من المسلمين وغير المسلمين، وعليه أعيد رجائي بموافقة الرئيس باسم الوطن والبلاد أن تسعوا:

أولاً: لإدخال من تأمنون جانبه وتثقون بصفاء ضميره من المسيحيين والدروز والإسرائيليين أعضاء بالحزب، حتى يكون حزبنا في سورية مؤلفاً من جميع العناصر. وقد سارت جميع فروع الحزب في بلادنا على نفس هذه الخطة.

---

(١) المصدر السابق- ٣٤٥.

ثانـــياً: أن تســـعوا للتأليف بين قلوب المسيحيين والإسرائيليين والطوائف الإسلامية ..)[١].

وقـــد احتج أعضاء جمعيات القومية، لتبنيهم دعوة التسامح الديني، بحجج منها:

١.إن الأديان كلها ترجع إلى أصل واحد، وتجتمع تحت لواء هدف واحد، وإذا اختلفت فإنما تختلف في الفروع، ويعود اختلافها إلى الاجتهاد في التفسير. وما كان كذلك فلا ينبغي له أن يصرف البشر عن الوحدة الإنسانية، وما ينبغي له أن يحيد بهم عن مبدأ (الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره)[٢].

٢.ومن حججهم على التسامح، أن معرفة الله من قبل جميع الطوائف يمكن أن تكـــون القاســـم المشترك بينها، فيستغني عن بقية التفاصيل مع الزمن ومع الرقي، وبهذه الكيفية تتوحد الأديان واللغات[٣].

٣.وقد احتجوا لنجاح الدعوة إلى التسامح الديني، باشتراك ومشاركة غير المسلمين في تأسيس الجمعيات، كما سبق ذكره.

قـــال محمـــد جمـــيل بيهم عن هذه التجربة: (من حسن الحظ أن العالمين الإسلامي والمسيحي قد أدركا الآن أن زمن القيل والقال في الشؤون الدينية قد ولى غير مأسوف عليه، وانصرف الناس عنه إلى اكتشاف أسرار الكائنات على

---

(١) أوراق محب الدين الخطيب-القاهرة.

(٢) فلسفة تاريخ محمد ﷺ-محمد جميل بيهم-٣٠-الدار الجامعية-بيروت.

(٣) العرب والترك-توفيق برو-٤٥٤.

رجـــاء أن يأتي اليوم السعيد الذي يعيشون فيه عالماً واحداً تسوده المحبة والإخاء والسلام)[١].

٤. كـــل الناس عباد الله، وكل سالك إليه سبيلا، والسبل اختلفت والغاية واحدة.. ولم يبق عاقل مفكر، يتمسك بحرية الفكر التي هي هبة من هبات الله، إلا يقول دعوا الناس لتسلك إلى الله أي طريق تشاء[٢].

٥. وجُدت الأديان جميعاً للتوفيق لا للتفريق ولخير الوطن لا لشره، فالدين لله والوطـــن للجمـــيع ودين الأكثرية من سكان البلاد العربية هو أشد الأديان تسامحاً وأكثرها عناية بخير المجتمع[٣].

هـــذا غـــيض مـــن فيض عن موقف جمعيات القومية من وحدة الأديان والدعوة إلى التسامح الديني، وسيكون الرد على هذه المواقف من خلال النقاط التالية:

أولاً : لقـــد ثبـــت في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله ﷺ، كفر اليهود والنصارى مما لا مجال للشك فيه، فقد قال العلماء: (واتفقوا على تسمية اليهود والنصارى كفاراً)[٤].

---

(١) فلسفة تاريخ محمد ﷺ-محمد جميل بيهم-٣٠.

(٢) كتاب العرب والإسلام-الندوي-١٩-نقلاً عن: مجلة العربي-العدد الأول-المقال:لأحمد زكي.

(٣) مذكراتي على هامش القضية العربية - ٢٨.انظر:

١. عبدالرحمن الشهبندر -حياته وجهاده-حسن الحكيم-٣٨٩.

٢. الحركة العربية سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة - ٦٧.

(٤) مراتب الإجماع-ابن حزم-١١٩.

وهـــؤلاء (الـــيهود والنصارى) من العرب، الذي يطلب أعضاء جمعيات القومـــية العربية معهم التعايش السلمي، قد وصلتهم رسالة الرسول ﷺ، كما وصلت للعالمين جميعاً، فينطبق عليهم قول السلف: (قد ثبت في الكتاب والسنة والإجمـــاع أن مـــن بلغـــته رسالة النبي ﷺ فلم يؤمن به فهو كافر لا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد لظهور أدلة الرسالة وأعلام النبوة)[١].

فالواجـــب تكفير اليهود والنصارى من العرب وغير العرب، ودعوتهم إلى إتباع الدين الحق ، لقول الرسول ﷺ: (**وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّد بيَده لا يَسْمَعُ بي أَحَـــدٌ منْ هَذه الأُمَّة يَهُوديٌّ وَلا نَصْرَانيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمنْ بالَّذي أُرْسلْتُ به إلاّ كَانَ منْ أَصْحَاب النَّار**)[٢].

قال النووي عن هذا الحديث: (وقوله (**لا يَسْمَعُ بي أَحَدٌ منْ هَذه الأُمَّة**) أي: ممن هو موجود في زمني وبعدي إلى يوم القيامة، فكلهم يجب عليه الدخول في طاعـــته، وإنمـــا ذكر اليهودي والنصراني تنبيهاً على من سواهما، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتاباً فغيرهم ممن لا كتاب له أولى)[٣].

ثانـــياً: أن الأصـــل لـــيس معرفة الله وأنه موجود فقط كما يزعم أعضاء الجمعيات، وإنما معرفته وعبادته وفق ما ثبت عن رسوله محمدٍ ﷺ، وتحقيق إياك نعبد وإياك نستعين.

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية-١٢/٤٩٦.

(٢) صحيح مسلم-كتاب الإيمان-بَاب وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ-رقم الحديث (٢١٨).

(٣) شرح صحيح مسلم-النووي-٢/١٨٨.

وقد كان هذا منهج الرسول ﷺ في دعوته عندما بعث معاذ بن جبل ﷺ إلى اليمن موصياً إياه: (**قَالَ لَهُ إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا صَلَّوْا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ، فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ**)[1].

ففي هذا الحديث بيان أن أول واجب على المكلف هو التوحيد بالله والشهادة بالرسالة لنبيه ، ووقعت البداءة بهما لأنهما أصل الدين الذي لا يصح شيء غيرهما إلا بهما[2]؛ والنبي ﷺ لم يطلب من معاذ بن جبل أن يترك القوم بعد أن علمهم كلمة التوحيد للزمان والرقي كما يدعيه أعضاء الجمعيات، إنما بين له ما يجب عليهم من أوامر الله تعالى.

ولهذا أجمع أهل العلم على أن الكافر إذا قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن كل ما جاء به محمد حق، وأبرأ من كل دين خالف دين الإسلام، وهو بالغ صحيح يعقل، أنه مسلم[3].

ثالثاً: إن دعوة التسامح الديني هي دعوة إلى تمييع الدين الإسلامي، وحل عرى الاعتزاز به، والالتفاف من حوله، وإطفاء حرارة الإيمان الديني بدعوى

---

(١) صحيح البخاري-كتاب التوحيد-بَاب مَا جَاءَ فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ -رقم الحديث(٦٨٢٤).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري-ابن حجر-٣/٤٢٠.

(٣) الإجماع-ابن المنذر النيسابوري-١٥٤.

التسامح والوطنية أو القومية، أو غيرها من المفاهيم[١]. وفي التسامح تحقيق للمبادئ الماسونية.

ومن الأمور المسلمة في مسألة التسامح الديني أن الذي ينال الخسارة العظمى من جراء هذا التسامح هو المسلم، لأن دين الإسلام هو الدين الحق ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾[٢]والمعتقدات الأخرى كلها معتقدات ومذاهب باطلة.

ويؤيد تحقيق هذه الخسارة للمسلم، واقع جمعيات القومية العربية، فقد كاتب النصارى من أعضاء جمعية بيروت الإصلاحية، القنصلَ العامَّ لدولة فرنسا راجين إخوانهم في المعتقد طلب الحماية، قائلين للقنصل: (نحن الموقعين أدناه الأعضاء المسيحيون في اللجنة التنفيذية للجمعية العمومية المنتخبة ..إننا إذ نعتبر فرنسا حامية المسيحيين العثمانيين ووطناً بالتبني لمسيحي سورية)[٣].

وهذه المبادرة في المعتقد القومي قد ظهرت أيضاً لدى أعضاء الحزب اللامركزي، فقد صرح رفيق العظم: "بأن الأعضاء المسيحيين يستدرجوننا إلى الرضا بالاحتلال الفرنسي والعمل له". ودلل على ما يقول بأنه أتى رجل مسلم غير معروف إلى خليل أيوب ـــ أحد أعضاء الحزب اللامركزي ـــ، وقال له:

---

(١) غير المسلمين في المجتمع الإسلامي-يوسف القرضاوي-٨٠-مؤسسة الرسالة-بيروت-الطبعة الثانية-١٤٠٤هـ.

(٢) سورة يونس- رقم الآية: ٣٢.

(٣) مذكرات سليم علي سلام-حسان حلاق-٢٤٥. وانظر: بلاد الشام-وجيه كوثراني-٢٧٠.

"لماذا أنتم تشتغلون مع رفيق العظم وأصحابه؟ فقال له: نحن نريد أن نتخذ هؤلاء المسلمين آلة للاحتلال الفرنسي"(١).

فالهدف من دعوة التسامح عند الجمعيات القومية العربية، هو إزالة استعلاء المسلم الحق بإيمانه، الناشئ من إحساسه بالتميز عن الجاهلية المحيطة به في كل الأرض(٢).

رابعاً: إن الدين الذي أنزله الله على عباده ليس أعمالاً تعبديه فقط، وإنما هو منهج حياة، فمن خلال توجيهات هذا الدين يقيم المسلم أمور دينه ودنياه. وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ ﴾(٣).

ومعنى هذه الآية الكريمة: دعاء المؤمن بمحمد ﷺ، وبما جاء به إلى الإسلام للعمل بجميع شرائعه، وإقامة جميع أحكامه وحدوده، دون تضييع بعضه والعمل ببعضه(٤). وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾(٥) وبهذا النهج وحده أي بأداء تلك العبادة الشاملة المتكاملة، التي تشمل الحياة والموت، تتحقق

---

(١) وثائق مجموعة محب الدين الخطيب-مجلة دراسات تاريخية-العدد (١٥ و١٦)-كانون الثاني-١٩٨٤.

(٢) مذاهب فكرية معاصرة-محمد قطب-٥٩٣.

(٣) سورة البقرة-رقم الآية (٢٠٨).

(٤) تفسير الطبري-٢/٣٢٤.

(٥) سورة الأنعام-رقم الآية(١٦٢-١٦٣).

غاية الوجود الإنساني، ويكون الإنسان قد قام ـــ قدر جهده ـــ بالعبادة المطلوبة تجاه الله[١].

وقضية التسامح الديني التي تدعو إليها جمعيات القومية، أهملت قضية الدين، وعززت قضية الانتماء القومي، حيث أقرت أن للعرب الحق بأن يختلفوا عقائدياً وأن تعبدَ كلُّ ملة منهم ما تشاء، ولكن لا يحق لهم أن يختلفوا في المبادئ القومية.

خامساً : من أي منطلق شرعي يقرر أعضاء جمعيات القومية العربية التسامح الديني، ودعوة المسلمين إلى نبذ الاعتزاز بالدين، ومساواة المسلمين بغيرهم من الأديان والنِّحل الباطلة.

فإن دعوة التسامح من أبرز المخالفات الظاهرة إذ على المسلم أن يُقرَّ ما عليه أصحاب العقائد الباطلة، وذلك للتعايش معهم. فليس من سلامة المنهج الرباني أن يكون المسلم على عقيدة واضحة المعالم والجوانب، ثم يأتي ليوافق غيره على عقائدهم المتضاربة لمجرد كسب رضاهم، أو أن يكون مُتّبِعاً لمنهج خاص ودستور معين للحياة ثم يقول لدعاة المناهج والدساتير الأخرى إنكم جميعاً على الحق، فهذا هو النفاق الصريح، وليس هو التسامح الصحيح[٢].

---

(١) مفاهيم ينبغي أن تصحح-محمد قطب-١٨٥-دار الشروق-القاهرة-الطبعة الثالثة-١٤٠٨هـ.

(٢) الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة-المودودي-٤٠-دار القلم-الكويت-الطبعة الثالثة-١٣٩٨هـ.

كما أن مبدأ جمعيات القومية العربية في الدعوة إلى التسامح الديني وتوحيد الأديان، فيه دعوة إلى إباحة الردة عن الإسلام بطريقة لَبِقَة والخروج على منهج الله لكل من تسولّ له نفسه في ذلك[١].

وقد تَسْهُل الردة في واقع المسلمين حينما ينشر في صحف المسلمين أمثال هذه الدعوات، ويتولى الدعوة إليها من يُظَنّ في نظر المسلمين أنهم الطبقة المثقفة (لا تفترقوا فرقاً وطوائف. فاليوم لا مسيحي ولا مسلم ولا يهودي ولا درزي ولا وثني، بل الجميع عرب وفي العرب وللعرب..وإن العصر الحاضر عصر قيام الجماعات على أسس القومية دون تفريق في الدين والمذهب)[٢].

ويتحدث شيخ الإسلام بن تيمية عن بعض الانحرافات التي وجدت عند بعض الملل، فيقول: "وهؤلاء المتفلسفة، ومتصوفهم كابن سبعين وأتباعه يجوزون أن يكون الرجل يهودياً أو نصرانياً أو مشركاً يعبد الأوثان، فليس الإسلام عندهم واجباً، ولا التهود والتنصر والشرك محرماً، لكن قد يرجحون شريعة الإسلام على غيرها.. وهذا من جنس جهال التتر أول ما أسلموا، فإن الإسلام عندهم خير من غيره، وإن كان غيره جائزاً لا يوالون عليه ويعادون عليه.

وهذا أيضاً أكثر اعتقاد علماء النصارى، وكثير من اليهود، يرون دين المسلمين واليهود والنصارى بمنزلة المذاهب في دين المسلمين، فيجوز للرجل

---

(١) الموالاة والمعادة في الشريعة الإسلامية-محماس بن عبدالله الجلعود-٢/٦٦٥.

(٢) مختارات المفيد-مقال: عبدالغني العريسي-١٦٤و٢٥٧.

عـــندهم أن ينتقل من هذه إلى تلك إما لرجحانها عنده في الدين، وإما لمصلحة دنياه"[١].

والذي ينكر على جمعيات القومية العربية في دعوتها للتسامح الديني، مماثل لما أنكره شيخ الإسلام على أصحاب العقائد الباطلة.

وفي خـــتام هـــذه الملاحظـــات على موقف جمعيات القومية من التسامح الديـــني، يجب التذكير بأمر مهم، وهو وجود الاتفاق بين ما دعت إليه جمعيات القومية العربية من قضية التسامح الديني، وبين ما أعلنه أعداء الإسلام والمسلمين لتحقيق هذا الأمر.

فقـــد اهتمت الدول الكافرة بقضية التسامح الديني، والعمل على احترام الحـــريات، التي تشمل احترام المعتقدات الدينية المختلفة، وعدم التمييز بينهما، وعقـــدت العديـــد من المؤتمرات والقرارات القاضية بعدم تميز قوم على قوم أو مجـــتمع عـــلى مجـــتمع وفق أسس دينية، وإلغاء ما يوجب التفريق على أسس دينية[٢].

ومـــن تلك المؤتمرات ما صدر في تاريخ ٢٥ نوفمبر ١٩٨١م من الإعلان العـــالمي الخاص بالقضاء على جميع أنواع التعصب والتمييز القائمين على أساس

---

(١) الرد على المنطقيين-ابن تيمية-٢٨٢.

(٢) انظر: التسامح الديني والتفاهم بين المعتقدات-وليم سليمان قلادة وآخرون-٨٨-١٥٦-سلسلة حوار الشهر-مركز اتحاد المحامين العرب للبحوث والدراسات القانونية-القاهرة.

الديـــن أو المعـــتقد. ووجـــوب التسامح بين الأديان والعمل في خير الإنسانية والمصلحة الوطنية.

ومما جاء في الإعلان: القرار رقم ٣٦/٥٥: إن الجمعية العامة...إذ تضع في اعتبارها أن من الجوهري تعزيز التفاهم والتسامح والاحترام في الشئون المتصلة بحرية الدين والمعتقد. ومن قرارات هذا المؤتمر:

المـــادة رقـــم (١): لكل إنسان الحق في حرية التفكير والوجدان والدين، ويشمل هذا الحق حرية الإيمان بدين أو بأي معتقد يختاره...

وفي المادة رقم (٣): يشكل التمييز بين البشر على أساس الدين أو المعتقد إهانة للكرامة الإنسانية...

وفي المادة رقم (٤) تتخذ جميع الدول تدابير فعالة لمنع واستئصال أي تمييز عـــلى أســـاس الدين أو المعتقد... وتبذل جميع الدول كل ما في وسعها لسن التشـــريعات أو إلغائهـــا حـــين يكون ضرورياً للحيلولة دون أي تمييز من هذا النوع، ولاتخاذ جميع التدابير الملائمة لمكافحة التعصب القائم على أساس الدين أو المعتقدات الأخرى في هذا الشأن[١].

وجمـــيع المواد لهذا الإعلان العالمي، تؤكد على الدعوة إلى التسامح الديني، والاعتراف بحرية المعتقدات، والوصاية باتخاذ جميع التدابير الفعالة لمنع واستئصال أي تمييز على أساس الدين أو المعتقد[٢].

---

(١) الإعـــلان العـــالمي للأمم المتحدة بشأن القضاء على التعصب الديني-١٠-١١-طيبه للدراسات والنشر.

(٢) المصدر السابق-١-١٥.

القسم الثالث: موقف الجمعيات القومية العربية من تحكيم الشريعة

عـــرّف أهل اللغة معنى كلمة الشريعة بأنها ما قَيَّضَ الله للإنسان من الدين وأمره به ليتحراه اختياراً مما تختلف فيه الشرائع ويعترضه النسخ، ودل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾[١] [٢].

فكـــل ما شرعت فيه من شيء فهو شريعة، ومن ذلك قيل لشريعة الماء: شـــريعة، لأنه يشرع منها إلى الماء، ومنه سميت شرائع الإسلام شرائع، لشروع أهله فيه[٣].

والشريعة بمعناها الشرعي تطلق على معنيين:

١ ــ الشـــريعة بمعـــنى الأحكام الفرعية: قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[٤]. وقد فسر ابن عباس هذه الآية بقوله: "سبيلا وسنة"[٥].

وقـــال قتادة: "يقال (سبيلاً وسنناً) والسنن مختلفة؛ هي في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ليعلم من يطيعه، ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام"[٦].

---

(١) سورة الجاثية رقم الآية: (١٨).

(٢) المفردات-الراغب الأصفهاني-٢٥٨. (شرع).

(٣) تفسير الطبري-٦/٢٦٩.

(٤) سورة المائدة-رقم الآية(٤٨).

(٥) تفسير ابن كثير-٣/١٢٠

(٦) تفسير الطبري-٦/٢٦٩.

كما دلت السنة النبوية على هذا المعنى روى أبو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: (**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاّتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**)[١].

ففي الحديث (**ديننا واحد**): أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم كقوله جل جلاله: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[٢].

وقد قال السلف: "لم يبعث الله نبياً قط إلا أوصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذي شرع لهم"[٣].

وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً، ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس وخفيفاً فيزاد في الشدة في هذه دون هذه، وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة والحجة الدامغة[٤].

٢ ــ وتطلق الشريعة ويراد بها المسائل العقائدية، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[٥].

---

(١) صحيح البخاري-كتاب أحاديث الأنبياء-بَاب قَوْلُهُ (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاّ الْحَقَّ)-رقم الحديث(٣١٨٧).

(٢) تفسير ابن كثير-١٢١/٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن-القرطبي-١١/١٦.

(٤) تفسير ابن كثير-١٢١/٣. وانظر: فتح الباري-ابن حجر-٥٦٤/٦.

(٥) سورة الشورى-رقم الآية(١٣).

قولـــه تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ أي: الدين الذي جاءت به الرسل كلُّهم هو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال عز وجل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[1].

ولهـــذا قال تعالى ههنا ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ أي أوصى الله تعـــالى جمـــيع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالائتلاف والجماعة ونهاهم عن الافتراق والاختلاف[2].

قال ابن تيمية عن حقيقة كلمة الشريعة: "اسم الشريعة والشرع والشرعة فإنـــه ينتظم كلَّ ما شرعه الله من العقائد والأعمال، وقد صنف الشيخ أبو بكر الآجري (كتاب الشريعة) وصنف الشيخ أبو عبدالله بن بطة (كتاب الإبانة عن شريعة الفِرقة الناجية) وغير ذلك.

وإنمـــا مقصود هؤلاء الأئمة في السنة باسم الشريعة: العقائدُ التي يعتقدها أهـــل السنة من الإيمان..فالسنة كالشريعة هي: ما سنه الرسول ﷺ وما شرعه، فقـــد يراد به ما سنه وشرعه من العقائد، وقد يراد ما سنه وشرعه من العمل، وقد يراد به كلاهما"[3].

وفي موضع آخر قال مؤكداً على شمول معنى الشريعة: "إن الشريعة جامعة لكـــل ولاية وعمل فيه صلاح الدين والدنيا، والشريعة إنما هي كتاب الله وسنة

---

(١) سورة الأنبياء- رقم الآية: (٢٥).

(٢) تفسير ابن كثير-١٨٣/٧. وانظر:تفسير الطبري-١٤/٢٥.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية-٣٠٦/١٩.

رســـوله، وما كان عليه سلف الأمة في العقائد والأحوال والعبادات والأعمال، والسياسات والأحكام، والولايات والعطيات"[١].

وهـــذه الشريعة الواردة في الكتاب والسنة هي الحاكمة لأفعال المسلمين والمرجعُ في جميع أحوالهم، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [٢] فكان خطاب هذه الآية لنبينا بأمر ﴿ فَٱتَّبِعْهَا ﴾: فاتبع تلك الشريعة التي جعلناها لك.﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ : ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون بالله، الذين لا يعرفون الحق من الباطل فتعمل به، فتهلك إن عملت به[٣].

فلا يجتمع إيمان بدون التسليم والانقياد لشريعة رب الأرض والسماوات، قال ابن تيمية: "ليس للإنسان أن يخرج عن الشريعة في شيء من أموره، بل كل مـــا يصـــلح له فهـــو في الشرع من أصوله وفروعه وأحواله وأعماله وسياسته ومعاملـــته..وحقـــيقة الشريعة: اتباع الرسل والدخول تحت طاعتهم، كما أن الخـــروج عنها خروج عن طاعة الرسل، وطاعة الرسل هي دين الله الذي أمر بالقتال عليه، فقال: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [٤] فعلى كل من الرعاة والرعية والرؤوس والمرؤوسين أن يطيع كل منهم الله ورسوله في حاله، ويلتزم شريعة الله التي شرعها له[٥].

---

(١) المصدر السابق-١٩/٣٠٨.

(٢) سورة الجاثية-رقم الآية(١٨).

(٣) تفسير الطبري-٢٥/١٤٦.

(٤) سورة البقرة-رقم الآية (١٩٣).

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية-١٩/٣٠٩-٣١٠.

ومن هذا المفهوم لمعنى كلمة الشريعة ولأنها شاملة للمعنيين جميعاً (العقائد والأحكام) ووجوب تعبد الله بالعمل بها والتحاكم إليها، كانت ضمن مباحث التوحيد، سوف تكون مناقشة مواقف جمعيات القومية العربية من تحكيم الشريعة.

الفرع الأول: استبعاد تحكيم الشريعة:

لدى البحث في كتب أعضاء جمعيات القومية العربية، لوحظ عدم الرجوع إلى الشريعة في صياغة مبادئ ونظم الجمعيات، وذلك لوجود أصحاب العقائد الباطلة فيها إما مؤسسين أو أعضاء.

وسبب آخر هو: أن أعضاء الجمعيات القومية ينظرون إلى الدين بالمنظار الغربي وقد تشربوا مبادئ العلمانية التي تفصل بين الدين والحياة. ومما زاد في تأثر أعضاء الجمعيات بلوثة العلمنة؛ أنه منذ أوائل القرن التاسع عشر ـ وهو وقت تأسيس الجمعيات ـ هبت موجة من الإصلاح بالنزعة الأوربية، وشاع تدوين القوانين فيها، لا سيما بعد تدوين القانون المدني الفرنسي[1].

كما تشرب أعضاء الجمعيات القومية بمبادئ الديمقراطية التي تجعل المشروعية العُلياء للجماهير، وإذا رجعوا لتحكيم فهو عند ضغط الواقع فيرجعون إليه لتحقيق مآربهم كما قال تعالى: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾[2].

---

(١) الأوضاع التشريعية في الدول العربية-صبحي المحمصاني-١٨٧-دار العلم للملايين-بيروت-الطبعة الرابعة ١٩٨١.

(٢) سورة النور-رقم الآية(٤٩).

وفي هـــذا المعنى صرح محمد جميل بيهم: "أن الاستدلال بالشريعة في قضية تـــنظير الجمعيات في كثير من المسائل كان تحت ضغط الاضطرار، مثال ذلك مـــنهج الجمعيات في تناول قضايا المرأة. يقول المؤسس في هذه القضية: نحن لا نريد أن نتعرض لأحكام الدين .. ولكن ما الحيلة ونحن نجد أنفسنا مضطرين هنا لأن نبحث الموضوع على أساس ديني، لأن ما استقر في أذهان الناس على اعتبار أنه شرعي لا يزحزحه إلا البرهان الديني"[1]. تبعاً لما يلزمه به الواقع الاجتماعي ـــ الذي يدين بالتسليم لشريعة رب العالمين ـــ أخذاً من أحكام الشريعة.

طالب مؤسسو الجمعيات القومية العربية أن تكون سياسة الناس بمعزل عن الدين، وجاءت هذه المطالبة بعد الاطلاع على سياسة الدول الكافرة لشعوبها، فقـــالوا: "إن العالم يسير إلى الديمقراطية الصحيحة سيراً حثيثاً، يجعل حياة الأمم السياسية بمعزل عن الاعتقادات، بحيث لا يكون تباين اعتقادين في شعب واحد مانعـــاً مـــن توثق عرى القومية..وقد سبق الغربُ الشرقَ بما عهدوه إلى هذه الديمقراطـــية، وبـــدأ الشـــرق يحس بها أو يشعر بالحاجة إليها..فليس المسيحي والـــيهودي وغيرهما بأقل حاجة من المسلم إلى الاعتقاد بالقومية وتوثيق وشائج الإخاء الوطني للدخول في تلك الديمقراطية.

ولتعميم هذا المعتقد طالب مؤسسو الجمعيات من الدول الكافرة مساعدة البلاد الإسلامية لتطبيق هذا المعتقد، قالوا: "وليتكاتفوا مع المسلمين على المضي

---

(١) فـــتاة الشـــرق في حضارة الغرب-محمد جميل بيهم-٤٠.وعن هذه القضية انظر: المرأة في فكر ونضـــال حـــزب البعـــث العربي الاشتراكي-سلسلة الثقافة الثورية-إلياس فرح-المؤسسة العربية للدراسات والنشر-بيروت-١٩٧٦.

في سبيل العلم والترقي والديمقراطية الصحيحة التي يسير إليها الشرق كما سار إليها الغرب، وليحققوا ـــ الدول الكافرة ـــ بذلك آمال الشرق في بنيه"[١].

ويستمر مبدأ جمعيات القومية العربية في إقصاء الشريعة من واقع المسلمين إذ أصدر حزب البعث القانون الذي سموه بـــ(قانون الأحوال الشخصية)، عنه يقـــول مؤسسو الحزب: (أصدر حزب البعث قانوناً للأحوال الشخصية انصف المـــرأة وساواها في الإرث مع الرجل، مؤكداً حقها الموازي للرجل في الطلاق، وحـــدد ســـن الزواج بثمانية عشر عاماً، ومنع تعدد الزوجات إلا في الحالات الاســـتثنائية، الشـــيء الذي أثار حفيظة المرجعات الدينية السنية والشيعية على السواء باعتباره قانوناً مخالفاً للشرع..

وقررت القيادة القطرية بعد مناقشات مطولة الإبقاء على القانون باعتباره منصفاً للمرأة حامياً لها، فضلاً عن أنه ترك الحرية للمواطن في الأخذ به أو التزام الشرع الإسلامي[٢].

في مباحـــث ســـابقة بينت موقف الجمعيات العربية من الدين، وأن الأمر الـــذي اتفقـــت عليه الجمعيات أن يكون الدين حاكماً في أمور الآخرة وبعض الأحـــوال الشخصية، وأنه ممارسة وجدانية. وأصبح مستند الجمعيات العربية الـــذي اعتمد عليه أعضاؤها في تقرير وتنظير مبادئها، هو الاستناد إلى القومية الخالصة، وفصل الدين عن السياسة، التي يحرم على رجال الدين الاشتغال بها[٣].

---

(١) مجموعة آثار رفيق العظم-(رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)-٨٢-٨٣.

(٢) أوكـــار الهـــزيمة تجـــربتي في حزب البعث العراقي-هاني الفكيكي-١٢٩. وانظر: مجلة القضاء العراقية-السنة الثانية-العددان الأول والثاني-صفر سنة ١٣٥٥هـــ.

(٣) قضية العرب-علي ناصر الدين-١٥.

إن استبعاد ما أسماه أعضاء الجمعيات بـ(رجال الدين) من الاشتغال في الأمور السياسية هو استبعاد للشريعة، ولهذا كان من أبرز مبادئ جمعيات القومية العربية فصل الدين عن السياسة.

وتنفيذاً لهذا المبدأ رأت جمعية رابطة الوطن العربي أن يقتصر تطبيق الشريعة والحكومة السياسية الدينية على ولاية الحجاز ومنطقة المدينة المنورة حتى العقبة[١].

وبهذا الرأي ظنت جمعية رابطة الوطن أنها حلت ما تعتقده مشكلة وهو الجمع بين السلطة الدينية والسلطة المدنية، فقال مؤسسها: "هكذا قد وجُدَ حلاً لصعوبة كبيرة بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية في الإسلام من أجل خير الجميع الأكبر"[٢].

وبهذا التقسيم يريدون أن يجعلوا منطقة دينية كالفاتيكان في إيطاليا، وأما بقية العالم فيتحرر كما فعلت أوربا بدينها المحُرّف.

وبدعوة فصل الدين عن شؤون الحياة، نادى علي عبدالرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) ملتزماً المبدأ العلماني، قال: "إن صلاح المسلمين في دنياهم لا يتوقف على شيء من أنواع السلطات، فليس بنا حاجة إلى تلك

---

(١) يقظة الأمة العربية-نجيب عازوري-٢٢٠.

(٢) المصدر السابق-٣٧ .

الخلافـــة لأمور ديننا ولا أمور دنيانا. ولو شئنا لقلنا أكثر من ذلك، فإنما كانت الخلافة و لم تزل نكبة على الإسلام وعلى المسلمين، وينبوع شر وفساد"[١].

أيـــد أعضاء جمعيات القومية العربية ما جاء في هذا الكتاب من طُروحات وأفكار تدل على مبدأ التوافق بين جمعيات القومية العربية وبين كتاب الإسلام وأصول الحكم[٢] فيما يتعلق بمسألة علاقة السياسة بالدين.

إن مسألة تحكيم الشريعة في كل شؤون الحياة هي من أساسيات العقيدة، والـــرجوع إليها من علامات الإيمان، كما قال تعالى:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾[٣].

لقد أقسم سبحانه بنفسه، على نفي الإيمان عن العباد حتى يُحكّموا رسولَه في كـــل مـــا شجر بينهم من الدقيق إلى الجليل، و لم يكتف بمجرد إيمانهم بهذا

---

(١) الإســـلام وأصول الحكم-علي عبدالرازق-٣٦-الطبعة الثانية-مصر-١٣٤٤هـــ. وانظر في الرد عليه:

١. نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم-محمد الخضر حسين- المكتبة السلفية-القاهرة.

٢. نظام الحكم في الإسلام-محمد يوسف موسى-دار المعرفة.

٣. الإسلام وأصول الحكم نقد وتعليق-ممدوح حقي.

(٢) انضـــم علي عبدالرازق إلى حزب الأحرار الدستوريين، وقد رضع الثقافة الأوربية حيث تعلم في جامعـــة أكســـفورد علـــوم السياســـة وهـــي الفـــترة بين ١٩١٢-١٩١٤ وهي فترة تأسيس الجمعيات.انظر:

١. الإسلام والخلافة-ضياء الريس-٣٦.

٢. الأعلام-الزركلي-٤/٢٧٦.

(٣) سورة النساء-رقم الآية(٦٥).

التحكـــيم بل حتى ينتفي عن صدورهم الحرج والضيق من قضائه وحكمه، ولم يكتف منهم أيضاً بذلك حتى يسلموا تسليماً، وينقادوا انقياداً[١].

إن العـــباد لـــيس لهم من الشريعة إلا تحقيق العبودية لله تعالى، ولذا قال السلف: ما جاء الشرع إلا للتعبد، وهو المقصود من بعثة الأنبياء عليهم السلام، كقولـــه تعـــالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾[٢] وقوله: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ ﴾[٣]، وقولـــه : ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ﴾[٤]، وقوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥ ﴾[٥]. وقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾[٦].

ومـــا أشـــبه ذلك من الآيات التي لا تكاد تحصى، كلها دال على أن المقصود ـــ من الشريعة ـــ التعبد لله..[٧].

ولهذا ذكر الحافظ الإسماعيلي: "أن من أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، قبول ما نطق الله به كتاب تعالى، وما صحت به الرواية عن رسول الله ﷺ، لا

---

(١) أعلام الموقعين-ابن القيم الجوزية-١/٥٠.

(٢) سورة النساء-رقم الآية (١).

(٣) سورة هود-رقم الآية (١-٢).

(٤) سورة إبراهيم-رقم الآية(١).

(٥) سورة الأنبياء-رقم الآية(٢٥).

(٦) سورة الزمر-رقم الآية(٢-٣).

(٧) الاعتصام-الشاطبي-١/٦١-٦٢.

معـــدل عمـــا وردا بـــه، ولا سبيل إلى رده، إذ كانوا مأمورين باتباع الكتاب والســـنة، مضـــموناً لهم الهدى فيهما، مشهوداً لهم بأن نبيهم يهدي إلى صراط مستقيم[١]، محذرين في مخالفته الفتنة والعذاب الأليم"[٢][٣].

وقد كانت سيرة سلف الأمة من جانب تطبيق الشريعة، من أوضح الأمثلة للتســـليم الـــتام لأوامر الوحي والانقياد المطلق، وقد حذر النبي ﷺ أمته من أن يســـيروا خلف مبادئ اليهود والنصارى حينما نبذوا كتاب الله تعالى، فقد قال رَسُـــولُ اللَّـــه ﷺ: (**إِنَّمَـــا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ؛ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**)[٤].

وســـار أصحابه من بعده على التسليم التام لشريعة الله وتحكيمها في كل شـــؤون الحياة، فلما وَلِيَ الخلافة أبو بكر الصديق خطب قائلاً: (..أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي..)[٥].

وكان هذا هو ديدن الصحابة كلهم ومنهجهم في تحكيم الكتاب والسنة، واعتبارهما حاكمين على كل قول ورأي، ولما كان هذا منهج أصحاب رسول

---

(١) كما قال تعالى{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}-سورة الشورى-رقم الآية(٥٢).

(٢) كما قال تعالى{فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} سورة النور-رقم الآية-(٦٣).

(٣) كتاب اعتقاد أهل السنة والجماعة-أبوبكر الإسماعيلي-٣١-دار الريان-الإمارات العربية المتحدة-الطبعة الأولى-١٤١٣هـ.

(٤) صحيح البخاري-كتاب أحاديث الأنبياء-بَاب حَدِيثُ الْغَارِ-رقم الحديث(٣٢١٦).

(٥) البداية والنهاية-ابن كثير-٢٤٨/٥. انظر: تاريخ الخلفاء-السيوطي-٨٢.

الله من تحكيم الشريعة، فقد قرر علماء السلف: (إن منهج السلف أنهم جعلوا الكتاب والسنة أمامهم، وطلبوا من قبلهما، وما وقع لهم من معقولهم وخواطرهم، عرضوه على الكتاب والسنة فإن وجدوه موافقاً لهما قبلوه، وشكروا الله حيث أراهم ذلك ووفقهم عليه، وإن وجدوه مخالفاً لهم تركوا ما وقع لهم، وأقبلوا على الكتاب والسنة، ورجعوا بالتهمة على أنفسهم، فإن الكتاب والسنة لا يهديان إلا إلى الحق، ورأي الإنسان قد يرى الحق، وقد يرى الباطل)[١].

ولذا لما أفتى ابنُ عباس بوجوب التمتع في الحج[٢] عارضه من عارضه باجتهاد أبي بكر وعمر، فقال لهم ابن عباس: (يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر)[٣].

وقد علق ابن القيم على الأثر قائلاً: (لم يكن أحد من الصحابة، ولا أحد من التابعين يرضى بهذا الجواب في دفع نص عن رسول الله، وهم كانوا أعلم بالله ورسوله، وأتقى له من أن يقدموا على قول المعصوم رأي غير المعصوم)[٤].

---

(١) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة-الأصبهاني-٢/٢٢٤-دار الراية-الرياض-الطبعة الأولى-١٤١١هـ.

(٢) معنى التمتع : أي التحلل من الإحرام بعد العمرة. لقول جابر (قَدِمْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُهِلِّينَ بِالْحَجِّ فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَجْعَلَهَا عُمْرَةً وَنَحِلَّ، قَالَ: وَكَانَ مَعَهُ الْهَدْيُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَجْعَلَهَا عُمْرَةً)-صحيح مسلم-كتاب الحج-بَاب بَيَانِ وُجُوهِ الإِحْرَامِ وَأَنَّهُ يَجُوزُ إِفْرَادُ الْحَجِّ وَالتَّمَتُّعِ وَالْقِرَانِ وَجَوَازِ إِدْخَالِ الْحَجِّ عَلَى الْعُمْرَةِ وَمَتَى يَحِلُّ الْقَارِنُ مِنْ نُسُكِهِ-رقم الحديث (٢١٣٤).

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل-١/٣٣٧. وانظر:

١. سنن النسائي-كتاب مناسك الحج-باب التمتع-رقم الحديث(٢٦٨٤).

٢. زاد المعاد في هدي خير العباد-ابن القيم -٢/٢٠٦.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد-ابن القيم الجوزية-٢/١٩٦.

فمن خلال ما سبق يتبين أن من أبرز علامات السلف في تحكيم الشريعة، قولهم: (على الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم)[١].

أما عن موقف الجمعيات القومية العربية من تحكيم الشريعة، يتبين أن الجريمة النكراء التي تولى كبرها أعضاء الجمعيات والأحزاب القومية هي تنحية الشريعة الإلهية عن الحكم واقتباس قوانين الكفار، وهذه الجريمة هي التي رفع علماء الإسلام أصواتهم بإنكارها، وبينوا أنها من أعظم وسائل هدم الدين، ابتُليت بها المجتمعات المعاصرة، ومن هؤلاء العلماء:

قال الشيخ محمد بن إبراهيم: إن من الكفر الأكبر المستبين، تنزيل القانون اللعين، منزلة ما نزل به الروح الأمين، على قلب محمد ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين، في الحكم به بين العالمين، والرد إليه عند تنازع المتنازعين مناقضة ومعاندة لقول الله عز وجل: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ [٢].

وبين الشيخ محمد بن إبراهيم أن بعض صور الحكم بغير ما أنزل الله كفر أكبر مخرج من الملة: فقال"النوع الخامس: وهو أعظمها وأشملها وأظهرها معاندة للشرع، ومكابرة لأحكامه، ومشاقة لله ورسوله، ومضاهاة بالمحاكم الشرعية

---

(١) صحيح البخاري-كتاب التوحيد-بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَاتِهِ).وانظر:

١. عقيدة السلف وأصحاب الحديث-الصابوني-٢٥-رقم (٣٥).

٢. حلية الأولياء-أبو نعيم-٣٦٩/٣.

٣. فتح الباري-ابن حجر-٥١٣/١٣.

(٢) سورة النساء-رقم الآية(٥٩).

إعـــداداً وإمداداً وإرصاداً وتأصيلاً، وتفريغاً وتشكيلاً وتنويعاً وحكماً وإلزاماً، ومـــراجع ومُسْتَنَدّات، فكما أن للمحاكم الشرعية مراجع مستمدات، مرجعها كـــلها إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فلهذه المحاكم مراجع، هي (القانون الملفق مـــن شـــرائع شـــتى، وقوانين كثيرة، كالقانون الفرنسي، والقانون الأمريكي، والقانون البريطاني، وغيرها من القوانين، ومن مذاهب بعض البدعيين المنتسبين إلى الشريعة).

فهـــذه المحاكم في كثير من أمصار الإسلام مهيأة مكملة مفتوحة الأبواب والـــناس إليها أسراب إثر أسراب، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السنة والكتاب، من أحكام ذلك القانون وتلزمهم به، وتقرهم عليه وتحتمه عليهم.

فيا معشر العقلاء ويا جماعة الأذكياء وأولي النُّهى كيف ترضون أن تجري عليكم أحكام أمثالكم، وأفكار أشباهكم، أو مَنْ هم دونكم، ممن يجوز عليهم الخطأ، بل خطؤهم أكثر من صوابهم بكثير، بل لا صواب في حكمهم إلا ما هو مستمد من حكم الله ورسوله، نصاً أو استنباطاً..."[1].

وقـــد أصّـــل الشيخ مسألة التحكيم بمسألة العقيدة، فقال: "التحاكم إلى حكـــام الشرع الحاكمين بما يظهر لهم شرعاً ضروري لا غناء للمسلمين عنه، وهو دستور المسلمين وعقيدتهم، كما أنه مضمون شهادة أن محمداً رسول الله، وقـــد أكمـــل الله لنا الدين أصولاً وفروعاً.. ولا يجوز استبدال (الشريعة الإلهية بـــالقوانين الوضعية) التي ما أنزل الله بها من سلطان، وإسناد المشاكل إلى أهل

---

(١) تحكيم القوانين-محمد بن إبراهيم-١٧-١٨.

القوانين من إسناد الأمر إلى غير أهله، لأنه من التحاكم إلى الطاغوت الذي أمر الله بالكفر به[١].

الشيخ أحمد شاكر: وممن بيّن بطلان منهج تشريع القوانين واستبدالها بشرع الحكيم العليم، الشيخ أحمد شاكر، فبعد أن نقل أحمد شاكر كلمة ابن كثير عن الياساق وقوله فيه: (فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء، وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة كفر، فكيف بمن تحاكم إلى الياساق وقدمها عليه؟ من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين)[٢].

قال أحمد شاكر: "أفيجوز مع هذا في شرع الله أن يحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربة الوثنية الملحدة؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة، يغيرونه ويبدلونه كما يشاؤون، لا يبالى واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها"؟

إن المسلمين لم يُبْلوا بهذا قط ــ فيما نعلم من تاريخهم ــ إلا في ذلك العهد، عهد التتار، وكان من أسوء عهود الظلم والظلام. ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له، بل غلب الإسلام التتار، ثم مزجهم فأدخلهم في شرعته. وزال أثر ما صنعوا بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم، وبأن هذا الحكم السيئ الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة، ولم يتعلموه ولم يعلموه أبناءهم. فما أسرع ما زال أثره.

---

(١) فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم-١٢/٢٧٤.

(٢) انظر: البداية والنهاية-ابن كثير-١٣/١٨.

أفرأيتم هذا الوصف القوي من الحافظ ابن كثير ـــ في القرن الثامن ـــ لذاك القانون الوضعي، الذي صنعه عدو الإسلام جنكيز خان؟ ألستم ترونه يصف حال المسلمين في هذا العصر، في القرن الرابع عشر؟ إلا في فرق واحد، أشرنا إليه آنفاً هو أن ذلك كان في طبقة خاصة من الحكام. أتى عليها الزمن سريعاً، فاندمجت في الأمة الإسلامية، وزال أثر ما صنعت.

ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالاً وأشد ظلماً وظلاماً منهم. لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تكاد تدين لهذه في هذه القوانين المخالفة للشريعة، والتي هي أشبه شئ بذاك (الياسق) الذي اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر، هذه القوانين التي يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام، ثم يتعلمها أبناء المسلمين، ويفخرون بذلك آباء وأبناء، ثم يجعلون مَرَدّ أمرهم إلى معتنقي هذا (الياسق العصري) ويحقرون من يخالفهم في ذلك، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم وشريعتهم (رجعياً) و (جامداً) ..

بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقي في الحكم من التشريع الإسلامي، يريدون تحويله إلى ياسقهم الجديد بالهوينا واللين تارة أخرى، وبالمكر والخديعة تارة، وبما ملكت أيديهم من السلطات أخيراً، ويصرحون —بدون حياء— بأنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين[1].

فبعد هذا الوصف الدقيق لحال الأمة في القرن الرابع عشر وتعطيلهم لشريعة الرحمن، وتحكيم القوانين الوضعية، قال ناصحاً للأمة ومبيناً الحكم

---

(١) عمدة التفسير-ابن كثير-تحقيق أحمد شاكر-٤/١٧٣-١٧٤-تراث الإسلام.

الشـــرعي في تحكيم القوانين:"أفيجوز إذاً ـــ مع هذا ـــ لأحد من المسلمين أن يعتـــنق هـــذا الدين الجديد أعني التشريع الجديد، أو يجوز لأب أن يرسل أبناءه لتعلم هذا واعتناقه واعتقاده والعمل به، عالماً كان الأب أو جاهلاً؟

أو يجـــوز لرجل مسلم أن يلي القضاء في ظل هذا (الياسق العصري) وأن يعمل به ويعرض عن شريعته البينة؟ ما أظن أن رجلاً مسلماً يعرف دينه ويؤمن به جملة وتفصيلاً، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله على رسوله كتاباً محكماً، لا يأتـــيه الباطل من يديه ولا من خلفه، وبأن طاعته وطاعة الرسول الذي جاء به واجبة قطعية الوجوب في كل حال، ما أظنه يستطيع إلا أن يجزم غير متردد ولا متأول، بأن ولاية القضاء في هذه الحال باطلة بطلاناً أصلياً، لا يلحقه التصحيح ولا الإجازة.

إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس، هي كفر بواح، لا خفـــاء فـــيه ولا مداورة. ولا عذر لأحد ممن ينتسب للإسلام ـــ كائناً من كان ـــ في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها.. ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيابين، وليبلغوا ما أُمروا بتبليغه، غير موانين ولا مقصرين[1].

الشـــيخ محمـــد الأمين الشنقيطي: ويستمر إنكار العلماء على من يحكم القوانـــين الوضعية، ويستبعد شريعة الرحمن في جميع شؤون الحياة، فمن هؤلاء العلماء محمد الأمين الشنقيطي، قال: إن كل من اتبع تشريعاً غير التشريع الذي جـــاء بـــه سيد ولد آدم محمد بن عبدالله، فاتباعه لذلك التشريع المخالف كفر بواح، فخرج عن الملة الإسلامية.

---

(١) عمدة التفسير-ابن كثير-تحقيق أحمد شاكر-١٧٤/٤.

وذكر الحديث الذي يرويه ابْن عَبَّاس قَالَ: (.. يَقُولُونَ مَا ذَبَحَ اللَّهُ فَلا تَأْكُلُوا وَمَا ذَبَحْتُمْ أَنْتُمْ فَكُلُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾[1] إِلَى آخِرِ الآيَةِ[2]، قال الشنقيطي: ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ فهو قسم من الله جل وعلا أقسم به على أن من اتبع الشيطان في تحليل الميتة أنه مشرك، وهذا الشرك مخرج عن الملة بإجماع المسلمين، وسيوبخ الله مرتكبه يوم القيامة بقوله: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾[3]. لأن طاعته في تشريعه المخالف للوحي هي عبادته[4].

وعند قوله تعالى: ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾[5]. قال الشنقيطي: يفهم من هذه الآيات أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله أنهم مشركون بالله. وهذا المفهوم جاء مبيناً في آيات أخر.

---

(١) سورة الأنعام-رقم الآية(١٢١).

(٢) سنن أبي داود-كتاب الضحايا-باب في ذبائح أهل الكتاب-رقم الحديث(٢٤٣٥).وأخرجه ابن ماجة في السنن-كتاب الذبائح-بَاب التَّسْمِيَةِ عِنْدَ الذَّبْحِ-رقم الحديث(٣١٦٤).وقال ابن كثير: هذا إسناده صحيح. وقال الحاكم: صحيح علَى شَرط مسلم. وأقره الذهبي.انظر:

١. تفسير الطبري-١٦/٧.

٢. المستدرك على الصحيحين-الحاكم-١١٣/٤و٢٣١.

(٣) سورة يس-رقم الآية(٦٠).

(٤) أضواء البيان-الشنقيطي-٤٣٩/٣-٤٤٠.

(٥) سورة الكهف-رقم الآية(٢٦).

ومن أكثر الأدلة صراحة في هذا أن الله جل وعلا في سورة النساء بيّن أن من يريدون أن يتحاكموا إلى غير ما شرعه الله يُتعَجَّب من زعمهم أنهم مؤمنون، وما ذلك إلا لأن دعواهم الإيمان مع إرادة التحاكم إلى الطاغوت بالغة من الكذب ما يحصل منه العجب، وذلك في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾[1].

وبهـــذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه الله جلا وعـــلا عـــلى ألسنة رسله، أنه لا يشك في كفرهم وشركهم إلا من طمس الله بصيرته، وأعماه عن نور الوحي مثلهم[2].

الفرع الثاني: الدعوة إلى سيادة الأمة في التشريع:

من مواقف جمعيات القومية من الشريعة الدعوة إلى أن يكون التشريع بيد الأمـــة أو مجموعة منها، لذلك تضمنت مبادؤها: أن يكون التشريع بيد الأمة، وفي الخـــلاف الـــذي وقع بين العرب والترك، أجمع أعضاء الجمعيات القومية العربـــية على أن للعرب في الدولة العثمانية ثلاثة حقوق، هي: حق في السلطة، وحق في التشريع، وحق في التنفيذ.

---

(١) سورة النساء-رقم الآية(٦٠).

(٢) أضواء البيان-الشنقيطي-٤/٨٣-٨٤.

والسلطة التشريعية أراد بها أعضاء الجمعيات: أنها القوة التي تعُنى بوضع القوانين والأنظمة في الأمة. ولهذا لم يرض أعضاء الجمعيات بالقوانين الصادرة من الدولة العثمانية لأنها صادرة بغير مشاركة أبناء العرب[١].

وعلى هذا الأصل فإن التشريع في مبادئ جمعيات القومية هو عبارة عن نزع السلطة من الأفراد، ووضعها بين يدي الجماعات[٢]. وبهذا المبدأ تكون الأمة هي صاحبة النهي والأمر في شؤونها، وتكون الهيئة الحاكمة وكيلة عن الأمة في إدارة تلك الشؤون[٣].

إن هذا المبدأ يمثل أحد الاتجاهات العقائدية التي ظهرت في الأمة في القرن الرابع عشر الهجري، التي تنادي بمبدأ فصل السلطات، القاضي بإسناد خصائص السيادة التي يختلف بعضها عن بعض، إلى أفراد أو هيئات مستقل بعضها عن بعض كذلك[٤].

وقد يكون من أهم مبررات نزوع أعضاء جمعيات القومية العربية إلى القول بسيادة الأمة في التشريع، هو تشربهم بالعقيدة الديمقراطية، حتى قال رفيق العظم:"إن تقدم المسلمين مناط بتحقيق الحياة الديمقراطية وتأسيس المجالس النيابية، وبنهضة المسلمين العلمية وحركتهم الفكرية، وتشربهم روح

---

(١) المؤتمر العربي الأول-خطبة عبدالغني العريسي-٤٥.

(٢) مؤلفات رفيق العظم-الجامعة العثمانية-١٢٥.

(٣) المؤتمر العربي الأول-خطبة اسكندر عمون-١٠٠.

(٤) مبادئ القانون الدستوري-السيد صبري-١٥٩-مكتبة عبدالله وهبة-مصر-الطبعة الثالثة-١٣٦٥هـ.

الديمقراطـــية، ما يقرب أوان التوفيق بين مصالح الشرق والغرب، ويدعو الدول إلى مصافاة الأمم الإسلامية"[١].

واعتبر رفيق العظم من أبرز أسباب تدني نظام دولة الإسلام، انحلال عرى الحكومـــة الديموقراطـــية، فدخـــل الوهن على الحاكم والمحكوم، وشقي الظالم والمظلوم[٢].

ومـــن أجل تحقيق المبادئ الديمقراطية فقد سعت الجمعيات القومية إلى أن تـــتحرر مـــن سلطة الخليفة العثماني، فقد صرح أعضاء الجمعيات، بقوة نفوذ وســـلطة الخلـــيفة، بقولهم: إن السلطان هو المرجع الأعلى لكل شأن مهم، فلا يعـــين وزيـــر أو موظف كبير مدني أو عسكري، ولا يصدر قانون، ولا يجري ويـــتم أمر رئيسي إلا بموافقته التي كان يعبر عنها تعبير (الإرادة السنية) بل كان يشمل أحياناً كثيرة شؤونا ثانوية وتافهة[٣].

فكـــان الســـراب الـــذي سعت نحوه جمعيات القومية العربية من سيادة الشعب ـــ زيادة على محاولة التحرر من سلطة الخليفة ـــ، هو أن سيادة الشعب تجمـــع بين عناصر الأمة على اختلاف المشارب والمذاهب والآراء، وتجعلها في مستوى واحد بالحقوق والواجبات[٤].

---

(١) مجموعة آثار رفيق العظم-(رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)-٨١.

(٢) أشهر مشاهير الإسلام- رفيق العظم-١/١٢٠-١٢٢.(بتصرف)

(٣) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١٨٩.

(٤) مؤلفات رفيق العظم-الجامعة العثمانية-١٢٥.

فمن منطلق التساوي بالحقوق والواجبات بين أفراد الشعب، يتساوى رأي النصراني واليهودي، والبعثي والدرزي، ويتساوى رأي مفتي البلد ورأي راقصة على المسرح، أو رأي كاتب صحفي ملحد.

ولهذا كان مبدأ الجمعيات أن إرادة الشعب باعتباره وحدة حرة ذات كيان خاص، هي الحكم الأخير في تقرير مصيره والبت في أمره، بدلاً من جعله سلعة تتهاده الأيدي الغاصبة، وبياعة تعرض في أسواق الاستعمار للمساومة والمقايضة[1].

وإعطاء مجموعة من البشر أحقية التشريع وسن الأحكام في الأمة من الأفكار الوافدة على المجتمع الإسلامي، فهو ليس من مصطلحات علماء المسلمين وإنما ورد إلى المجتمع الإسلامي بعد أن استبيحت ديار الإسلام للغرب بعد (ضعف ومن ثم) سقوط الخلافة العثمانية، فجاسوا خلال الديار وتبّروا فيها تتبيرا .. وطبقوا هذا القانون على بلاد المسلمين، وأوجدوا جيلاً من أبناء المسلمين تربى على أعينهم وتعلم في جامعاتهم ليتبنى هذا القانون[2].

فكانت فكرة سيادة الأمة من مبادئ الثورة الفرنسية، وكان أول من نادى بهذا المعتقد (جون لوك) *John Locke* وهو فيلسوف إنكليزي وقد تأثر بآرائه التحررية كثير من رجال الثورة الفرنسية.

---

(١) عبدالرحمن الشهبندر-حياته وجهاده-حسن الحكيم-١١٠.

(٢) السيادة في الإسلام-عارف أبو عيد-٢٤-مكتبة المنار-الأردن-الزرقاء-الطبعة الأولى-١٤٠٩هـ.

وقد نادى بهذا المبدأ في مقابل النظرية المسماه (الحق الإلهي) وهي: نظرية سياسية تقول بأن الملك يحكم بموجب سلطة مطلقة منحها من الله مباشرة فهو غير مسؤول أمام أية سلطة أرضية (كالبرلمان مثلاً)، ولكنه مسؤول تجاه الخالق وحـــده، وبالتالي فإن أحداً لا يستطيع أن يجرده من هذه السلطة مهما اشتط أو جـــار، وقد بقيت نظرية حق الملوك الإلهي سائدة في إنكلترا حتى القرن السابع عشـــر، أمـــا في فرنســـا فقـــد بقيت هذه النظرية سائدة حتى نشوب الثورة الفرنســـية[١]. فصدر دستور الثورة الفرنسية عام (١٧٨٩م-١٢٠٣هـــ) ومما جاء في المادة الثالثة: الأمة مصدر السيادة ومستودعها، وكل هيئة وكل شخص يتولى الحكم إنما يستمد سلطته منها[٢].

وتمخضـــت الثورة عن نتائج بالغة الأهمية، فقد ولدت لأول مرة في تاريخ أوربـــا المسيحية دولة جمهورية لا دينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب وليس (باسم الله) وعلى حرية التدين بدلاً من الكثلكة، وعلى الحرية الشخصية بـــدلاً مـــن التقـــيد بالأخلاق الدينية، وعلى دستور وضعي بدلاً من قرارات الكنيسة[٣].

الرد على موقف الجمعيات من سيادة الأمة في التشريع:

إن جميع المبررات التي ذكرها أعضاء جمعيات القومية ـــ بالدعوة إلى سيادة الأمة في التشريع ـــ غير مقبولة في توطيد هذا الأمر وتحكيمه في واقع المسلمين.

---

(١) موسوعة المورد العربية-منير البعلبكي .وانظر: نظام الحكم في الإسلام-محمد فاروق النبهان-٢٤.

(٢) النظم السياسية-محمد كامل ليلة-٤٧٣-٤٧٥-مطبعة نهضة مصر. وانظر:
أنظمة الحكم في الدول النامية-عبدالحميد متولي-٣٠.

(٣) العلمانية-سفر الحوالي-١٦٩.

وقد سبقت الإشارة إلى أن فكرة سيادة الأمة في التشريع لم تكن معروفة عند سلف هذه الأمة ولا في خلفها إلا بعد الغزو الفكري في مجتمعات المسلمين.

وفي المباحث السابقة[١] اتضح أن من أهداف جمعيات القومية إحلال الحكم الديمقراطي بدلاً عن الشرعي في واقع المسلمين، والقول بسيادة الأمة في التشريع من أبرز معالم الديمقراطية، حيث أن المثل الأعلى في الحكم الديمقراطي، هو أن يحكم الشعب نفسه بنفسه.. ويسن القوانين التي تحكمه، ويصرف شؤونه الإدارية الكبرى، ويقضي فيما يراد القضاء فيه[٢].

فيعني الحكم الديمقراطي أن السلطة ــ سيادة التشريع ــ ترجع إلى الشعب وأنه صاحب السيادة، وأن الديمقراطية في النهاية هي مبدأ السيادة الشعبية[٣].

ولما كان الشعب لا يتصور أن يقوم بمجموعه في تنفيذ سيادة التشريع لذا ظهرت في الحكم الديمقراطي المجالس النيابية وهي تعني أن الشعب يعهد إلى نواب عنه ينتخبهم لمدة معينة، وينيبهم عنه في ممارسة السلطة التشريعية باسمه، فالبرلمان في الديمقراطية هو الممثل للسيادة الشعبية وهو الذي يعبر عن إرادة الشعب من خلال ما يصدره من تشريعات أو قوانين[٤].

ونهجت جمعيات القومية العربية السبيل ذاته حينما طالبت بإيجاد المجالس النيابية ووجوب مشاركة العرب في هذه المجالس .

---

(١) انظر: الفصل الثالث-الباب الأول من الرسالة-ص: (٢٧٥).

(٢) دراسات في النظم الدستورية المعاصرة-محمد عبدالله العربي-١٨٥.

(٣) موسوعة السياسة-عبدالوهاب الكيالي-٢/٧٥٦.

(٤) المصدر السابق-٢/٧٥٧.

تبين أن معنى السيادة يتلخص أساساً في الحق المطلق في التشريع الذي لا يخضع لسلطة أخرى، كما عرفها أهل الاختصاص بقولهم: "الديمقراطية يعبر عنها في الدساتير بمبدأ (سيادة الأمة) والسيادة طبقاً لتعريفها هي سلطة عليا لا يوجد أعلى منها"(١).

ومن لوازم التسليم لهذه السلطة العليا بأنه لا يوجد سلطة أخرى تملك صلاحية إعادة النظر في قراراتها، وهي سلطة لا يقيدها قانون(٢).

ويمكن حصر النقد لدعوة الجمعيات إلى نظرية السيادة في التشريع ـ بما تدل عليه ـ في زاوية قولهم بسيادة الأمة بما تعنيه هذه العبارة من منح البشر ـ مهما كانت ألقابهم أو أعدادهم ـ حق التحليل والتحريم (التشريع) وسن تشريعات في واقع الأمة دون الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، وعرض ذلك فيما يلي:

أولاً: الدين حدد مصدر التشريع: لقد فرض الله تعالى الحكم بشريعته، وأوجب ذلك على عباده، وجعله الغاية من تنزيل الكتاب، فقال: ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ (٣). وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ (٤).

---

(١) أنظمة الحكم في الدول النامية-عبدالحميد متولي-٦٢٥-١٩٨٥.

(٢) العلاقات الدولية-جوزيف فرانكل-٢٥-مطبوعات تهامة-١٩٨٤.

(٣) سورة البقرة-رقم الآية (٢١٣).

(٤) سورة النساء-رقم الآية (١٠٥).

وكما حدد الدين مصدر التشريع بأنه الكتاب المنزل، أبانت آيات أخر أن صاحب السلطة المطلقة في التشريع هو الله كما جاء في الآية : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[1].

وحكى الله تعالى حال من يتحاكم إلى غير حكم الله من أهل النفاق، فقال تعالى: ﴿ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾[2]. قال ابن تيمية عن هذه الآيات: ذم الله عز وجل المدعين الإيمان بالكتب كلها، وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة، ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله، كما يصيب ذلك كثيراً ممن يدعي الإسلام وينتحله في تحاكمهم إلى مقالات الصابئة الفلاسفة أو غيرهم، أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة الإسلام من ملوك الترك وغيرهم.

وإذا قيل لهم تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضاً، وإذا أصـــابتهم مصيبة في عقولهم ودينهم ودنياهم بالشبهات والشهوات، أو في نفوســـهم وأموالهم عقوبة على نفاقهم، قالوا إنما أردنا أن نحسن بتحقيق العلم بالذوق، ونوفق بين الدلائل الشرعية والقواطع العقلية التي هي في الحقيقة ظنون وشبهات[3].

---

(١) سورة الأنعام-رقم الآية(٥٧).

(٢) سورة النساء-رقم الآية (٦٠).

(٣) مجموع الفتاوى-٣٧/٧.

وسيادة التشريع من دون الله ارتضاها لأنفسهم اليهود والنصارى قبل الإسلام، فهي ليست عليهم جديدة؛ قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ ﴾ (١).

وقد جاء في تفسير هذه الآية الكريمة حديث عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ: « يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قَالَ أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ » (٢).

قال أبو البختري: "أما إنهم لم يصلوا لهم، ولو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم، ولكن أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه، وحرامه حلاله، فأطاعوهم فكانت تلك الربوبية"(٣).

ويعتبر عمرو بن لحي نموذجاً من نماذج سيادة التشريع عند مشركي العرب، قالَ النَّبِيُّ ﷺ عنه: (**رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنِ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ**)(٤).

---

(١) سورة التوبة-رقم الآية(٣١).

(٢) سنن الترمذي-كتاب التفسير-بَاب وَمِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ-رقم الحديث(٣٠٢٠)- وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إِلا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ السَّلامِ بْنِ حَرْبٍ وَغُطَيْفُ بْنُ أَعْيَنَ لَيْسَ بِمَعْرُوفٍ فِي الْحَدِيثِ.

(٣) مجموع الفتاوى-٦٧/٧.

(٤) صحيح البخاري-كتاب المناقب-بَاب قِصَّةِ خُزَاعَةَ-رقم الحديث(٣٢٦٠).

ومن أمثلة تشريع الجاهلية التي ذكرها القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[1].

فكان التشريع أن: الْبَحِيرَةَ هي الَّتي يُمْنَعُ دَرُّهَا للطَّوَاغيت وَلا يَحْلبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، وَالسَّائبَةُ الَّتي كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لآلهَتهمْ فَلا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ[2]، وَالْوَصيلَةُ النَّاقَةُ الْبكْرُ تُبَكِّرُ في أَوَّل نتَاجِ الإبلِ ثُمَّ تُثَنِّي بَعْدُ بأُنْثَى، وَكَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لطَوَاغيتهمْ إنْ وَصَلَتْ إحْدَاهُمَا بالأُخْرَى لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ، وَالْحَام: فَحْلُ الإبلِ يَضْرِبُ الضِّرَابَ الْمَعْدُودَ فَإذَا قَضَى ضِرَابَهُ وَدَعُوهُ للطَّوَاغيت وَأَعْفَوْهُ منَ الْحَمْلِ، فَلَمْ يُحْمَلْ عَلَيْه شَيْءٌ)[3].

فهذه التشريعات الجاهلية قد صدرت عن عمرو بن لحي، فهو أول من سيب السوائب وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء وهو الذي حمل قريشاً على عبادة الأصنام لعنه الله وقبحه[4].

وصفة السيادة هي من صفات التعظيم ولا يتصف بها إلا الله، ومن معاني قَوْلُهُ تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ ﴾ أن الْعَرَب تُسَمِّي أَشْرَافَهَا الصَّمَدَ. ومن معانيه: السَّيِّدُ الَّذي انْتَهَى سُودَدُهُ[5].

---

(١) سورة المائدة-رقم الآية(١٠٣).

(٢) صحيح البخاري-كتاب المناقب-بَاب قصَّة خُزَاعَةَ-رقم الحديث(٣٢٦٠).

(٣) المصدر السابق-كتاب التفسير-بَاب(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ) الآية-رقم الحديث(٤٢٥٧).

(٤) تفسير ابن كثير-١٨٦/٧.

(٥) صحيح البخاري-كتاب التفسير-بَاب قَوْلُهُ (اللَّهُ الصَّمَدُ).

ولهذا لم يرض الرسول ﷺ أن يوصف بها، فعَنْ مُطَرِّف قَالَ: قَالَ أَبِي ــ عبدالله بن الشخير ــ: "انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا! فَقَالَ: (**السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**) قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً، فَقَالَ: (**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ وَلا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**)[١]. أي أن الله هو الذي تحق له السيادة[٢] وأن السؤدد حقيقة لله عز وجل، وأن الخلق كلهم عبيد له[٣].

ثانياً: لقد وصف الله الإنسان بصفة لا تؤهله أن يكون مشرعا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾[٤]. وقد وصف السلف من تعاطى مرتبة التشريع بأنه طاغوت، فقالوا: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله[٥].

فمن تحاكم أو حاكم إلى غير ما جاء به الرسول ﷺ فقد حَكَّم الطاغوت وتحاكم إليه بأي صورة كانت. وقال الشيخ محمد بن عبدالوهاب: والطواغيت كثيرة ورؤوسهم خمسة منها:

---

(١) سنن أبي داود-كتاب الأدب-بَاب فِي كَرَاهِيَةِ التَّمَادُحِ-رقم الحديث(٤١٧٢)وانظر:مسند أحمد-٢٤٩/٣.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر-ابن الأثير-٤١٧/٢.

(٣) مختصر سنن أبي داود ومعالم السنن وتهذيب ابن القيم الجوزية-١٧٦/٧.

(٤) سورة العلق-رقم الآية(٦-٧).

(٥) إعلام الموقعين-ابن القيم-٥٣/١.

١ ــ الحاكم الجائر المغير لأحكام الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾[١].

٢ ــ الذي يحكم بغير ما أنزل الله، والدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[٢][٣].

فالمسلم لا يدين بسلطة تشريع إلا الوحي المنـــزل المعصوم من الجهل والمحاباة والنقصان، قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[٤] وقال: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾[٥].

فمن عقيدة المسلم عند التنازع أن يكون الحاكم هو الكتاب والسنة، لأنه من حق كل أحد أن يكون حاكماً بما جاء به النبي ﷺ فقط لا بخلافه، كما أن من حق كل أحد أن يحاكم إلى ما جاء به النبي ﷺ فمن حكم بخلافه أو حاكم إلى خلافه فقد طغى، وجاوز حده، حكماً أو تحكيماً[٦].

---

(١) سورة النساء-رقم الآية (٦٠).

(٢) سورة المائدة-رقم الآية (٤٤).

(٣) الجامع الفريد-٢٧١-طبع في مطبعة المدينة-الرياض.

(٤) سورة الأنعام-رقم الآية (٣٨).

(٥) سورة الإسراء-رقم الآية (١٢).

(٦) تحكيم القوانين-محمد بن إبراهيم آل الشيخ-٩.

والمجالس التشريعية التي تطالب بإنشائها جمعيات القومية العربية في المجتمعات الإسلامية لا تقدم لهم إلا فساد الدين والدنيا، فقرارات وأنظمة البشر تحمل الصفات البشرية من الخطأ والجهل والظلم والنقص.

وقد صرح أهل القانون بعد الجهد الذي يبذلونه لملاحقة قوانينهم تعديلاً وتبديلاً، فقالوا: "أين الحق وأين الباطل في الآراء البشرية الخاصة بهذه الموضوعات؟

إننا لا نجد لدى البشرية مقياساً للحق والباطل، كل المقاييس التي حاولت الإنسانية أن تخترعها منذ الأزمنة القديمة أثبتت فشلها وبطلانها، وبقي اختلاف البشرية كما هو، ولما لم تستطع الجماعات البشرية أن تصل بعقلها إلى الحق، وأن تكشف الباطل كان لديها المجال المتسع الكبير لتزييف الآراء أو صناعة الآراء"[1].

ثالثاً: سيادة تشريع الشعب من أجل القضاء على تفرد الحاكم:

يدعي أعضاء جمعيات القومية العربية، أن سبب دعواهم بسيادة التشريع للشعب، من أجل نزع سلطة الحاكم المطلقة.

إن السيادة المطلقة سواء كانت لفرد أو لجماعة مرفوضة، وممارسة التشريع من دون الله إذا كان يقوم بها فرد واحد، فهي شبية بممارسة التشريع التي يقوم بها مجموعة.

---

(١) الشريعة الإسلامية-عبدالحميد متولي-منشأة المعارف بالاسكندرية-الطبعة الأولى.

وكان الواجب على أعضاء الجمعيات القومية أن يعودوا إلى الله الحق، وأن يطلبوا نزع ممارسة التشريع من الحاكم الفرد المطلق وردها إلى الله، ولو طلبوا هذا لوفقوا للصواب، ولكنهم طلبوا نزعها من فرد وردها إلى ممثلي الشعب. وذلك لأن المحرك لهم ليس الغيرة على الإسلام وعلى شريعة الله، وإنما المحرك لهم تقليدهم الأعمى للغرب الذي ثار على سلطة الحاكم المطلق وردها إلى الشعب.

فقد كانت نتيجة الثورة الفرنسية تسليط الشعب على مكانة التشريع، والثورة على الحق الإلهي، وهي: نظرية سياسية تقول بأن الملك يحكم بموجب سلطة مطلقة. وهذه النتيجة مثل نتيجة ثورة الجمعيات القومية أن جعلت للشعب (أفراداً كانوا أو جماعات) الحق في ممارسة التشريع.

قال الرسول ﷺ: (**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: **فَمَنْ**)[1].

والمنهج الإسلامي في سياسة الأمة هو التزام السلطة الإسلامية بإحكام الشريعة الإسلامية، وأن اختراع السلطة أحكاماً تخالف شرع الله وجعل ذلك ديناً يعمل به الناس منقصة لتلك السلطة[2].

فلا يحل الحكم إلا بما أنزل الله تعالى على لسان رسوله ﷺ وهو الحق وكل ما عدا ذلك فهو جور وظلم لا يحل الحكم به، ويفسخ أبداً إذا حكم به حاكم، وبرهان ذلك ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾[3].

---

(١) صحيح البخاري-كتاب أحاديث الأنبياء-بَاب مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ-رقم الحديث(٣١٩٧).

(٢) السيادة في الإسلام-عارف أبو عيد-١٧٤.

(٣) المحلى-ابن حزم-٣٦٢/٩-كتاب الأقضية-رقم المسألة (١٧٧٤)-دار الآفاق الجديدة-بيروت.

ومـــنهج جمعيات القومية العربية في تقرير السيادة للشعب هو انتقال من سلطة الفرد إلى سلطة الجماعة، والأصل الانتقال من سلطة البشر وسيادتهم إلى سلطة وسيادة رب البشر.

قال تعالى مخاطباً نبيه خاصة، والأمة عامة: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [1] فإما شريعة الله وإما أهواء الذين لا يعلمون، وليس هناك من فرض ثالث، ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة والأهواء المتقلبة، وما يترك أحد شريعة الله إلا لِيُحَكِّم الأهواءَ فكل ما عداها هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون.

قال صاحب الظلال في تفسيره قوله تعالى ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ "إنها شريعة واحدة هي التي تستحق هذا الوصف، وما عداها أهواء منبعها الجهل، وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها، ويدع الأهواء كلها، وعليه ألا ينحرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الأهواء[2].

وقـــد أجمـــع العلماء على أنه مذ مات النبي ﷺ فقد انقطع الوحي وكمل الدين واستقر، وأنه لا يحل لأحد أن يزيد شيئاً من رأيه بغير استدلال منه، ولا أن ينقص منه شيئاً ولا أن يبدل شيئاً مكان شيء، ولا يحدث شريعة..ولا يحل ترك ما صح من الكتاب والسنة[3].

---

(١) سورة الجاثية-رقم الآية(١٨).

(٢) في ظلال القرآن-سيد قطب-٣٢٢٩/٥.

(٣) مراتب الإجماع-ابن حزم-١٧٤-١٧٥.

فمما ظهر من كتاب الله تعالى وسنة نبيه وأقوال سلف الأمة، تبين مخالفة منهج جمعيات القومية العربية من الشريعة، في تبني قضية سيادة التشريع للشعب أو لمجموعة منه.

الفرع الثالث: تحكيم الكفار في أحوال المسلمين:

إن تعاظم صورة الحياة الغربية في جميع مجالاتها لدى أعضاء جمعيات القومية العربية، قضية لا تحتاج إلى برهان، ومن جراء هذا التقدير والإعجاب بالحياة الغربية، لطالما طالب كثير من أعضائها بالاستعانة بالكفار والذين أطلقوا عليهم (مستشارين أجانب).

فكان من ضمن قرارات الجمعية الإصلاحية: تعين الحكومة المركزية مستشارين من الأجانب ،على شرط معرفتهم إحدى اللغات الثلاث العربية أو التركية أو الفرنسية .. وتعين أيضاً مفتشاً أجنبياً عاماً لكل لواء من الألوية يخول حق تفتيش أية دائرة كانت من اللواء ...ويعين المجلس العمومي من الدول التي ترضاها الحكومة المركزية، مستشارين لدوائر: مجلس الولاية العمومي، والعدلية .. والمعارف .. والبوليس ، وتكون مدة الاستشارة (١٥) سنة قابلة للتجديد[1].

وطرحت جمعيات القومية العربية موضوع الاستعانة بـ(المستشارين الأجانب) أثناء انعقاد المؤتمر العربي الأول، وأجمعت آراء أعضاء الجمعيات القومية على مبدأ استشارة الأجانب، فمن أقوال أعضاء الجمعيات:

---

(١) ثورة العرب-أحد أعضاء جمعيات العربية-٦٦. وانظر:

١. مجلة المنار-رشيد رضا-المجلد ١٦-الجزء ٤-سنة ١٣٣١هـ.ص:٢٧٥.

٢. مذكرات علي سلام-١٣٣-١٥٠.

يقـــول أحد الأعضاء[١]: "لا أرى أنّا ناجحين ـــ أعضاء المؤتمر العربي ـــ بأي طريقة من طرق الإدارة إلا إذا استعنا في تنفيذها بمعارف الاختصاصين من الأجانـــب يـــوم يكونـــون مستشـــارين لنا، وأن الاستعانة بمعارف الأجانب الاختصاصين ليس فيها ما يخشى منه على جامعتنا السورية".

وقال سليم سلام ـــ عضو وأحد المؤسسين للجمعية الإصلاحية ـــ: "ليس في نظـــام اللامركزية ما يمنع الاستعانة لا بالقريب ولا بالبعيد، بل هو قائم على أساس الحاجة الداخلية لكل ولاية من الولايات".

وعلى نفس المنهج سار حزب اللامركزية، فقد قال اسكندر عمون: "ليس بين برنامج حزب اللامركزية وبين اللوائح الأخرى الخاصة ببعض الولايات أي خلاف، فإن برنامج الحزب نص على أن اختيار موظفي كل ولاية من حقوق مجلـــس إدارة تلك الولاية..فهو مطلق الإرادة في أمر الموظفين وفي كل الأمور الداخلية للولاية"[٢].

ويؤكـــد موقـــف حزب اللامركزية أن مجلة المنار قد كتبت ثناءً وشكراً لأعضـــاء جمعـــية بيروت الإصلاحية بعد تأسيس نظام الجمعية، وقال صاحب المجلـــة: "كنت أود لو جروا ـــ أعضاء جمعية بيروت الإصلاحية ـــ على طريقة حـــزب اللامركـــزية بمصـــر فلم يقيدوا أنفسهم بهذه القيود الثقيلة في مسألة

---

(١) شارل أفندي دباس.

(٢) المؤتمر العربي الأول-١٠٥

المستشارين من الأجانب .. وحزب اللامركزية الإدارية في مصر لم يتعرض في برنامجه للتفصيل لأن الإنفاق عليه متعذر فعسى أن يكون هو الجامع للجميع[١].

وقد برر أعضاء الجمعيات الاستعانة بالمستشارين الأجانب من أجل النهوض بالبلاد العربية[٢]. ويتضح موقف جمعيات القومية، من قضية استشارة الأجانب حينما حددت الجمعيات مجال مهام الأجانب، والتي تتلخص فيما يلي:

١ــ تفسير مواد النظام الذي تضعه الحكومة المركزية ..

٢ــ تفسير القرارات والأنظمة التي يضعها المجلس العمومي .

٣ــ النظر والحكم في وجوب عزل الموظف أو عدمه .

٤ــ النظر والحكم بناء على طلب الوالي أو أحد المستشارين في كل خلاف في الرأي يقع بين أحد المستشارين والمجلس العمومي أو إحدى لجانه أو أية دائرة كانت . ويكون حكمه مبرماً ..)[٣].

ومما تجب الإشارة إليه قبل مناقشة موقف الجمعيات من الاستعانة بالأجانب، نصارى العرب هم من أبرز من تولى مهمة تأسيس الجمعيات في البلاد العربية، وقد كانت لهم سلطة في صنع القرار وتوجيه الرأي العام. فهم والمستشارون الأجانب في حكم الشريعة واحد.

---

(١) مجلة المنار-رشيد رضا-المجلد ١٦-الجزء ٤-سنة ١٣٣١هـ.ص:٢٨٠.

(٢) الحركة العربية-سليمان موسى- ٨٥.

(٣) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني - ٣٦٧-٣٦٨.

فليس هناك فرق بين الكافر (الأجنبي) أو الكافر العربي (عضواً كان أم رئيس جمعية) فهم في الجانب الشرعي حكمهم واحد إذ يجمعهم الكفر، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ ﴾ [1].

وقد تناول علماء السلف حكم استشارة الكافر في هذا الجانب[2] ففرقوا فقط بين الذمي والمحارب الكافرين فقط، دون النظر إلى لغته أو بلده. وأما عن مناقشة آراء الجمعيات في مسألة استشارة الأجانب، فيمكن القول فيها بما يلي:

أولاً: الاستفادة من خبرات الأمم الأخرى، مطلب شرعي: الظاهر من نصوص الشريعة والتطبيق النبوي العملي لها، عدم الممانعة من الاستفادة من خبرات الأمم الأخرى، وقد قال تعالى عن الكفار: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [3]. فعندما يكون لدى الأمم الكافرة علم من علوم الدنيا المباحة، فلا ممانعة من أخذ تجاربهم، والأدلة على ذلك كثيرة منها:

١ــ عَنْ جُدَامَةَ بِنْتِ وَهْبٍ الأَسَدِيَّةِ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **(لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَى عَنِ الْغِيلَةِ• حَتَّى ذَكَرْتُ أَنَّ الرُّومَ وَفَارِسَ يَصْنَعُونَ**

---

(١) سورة النساء-رقم الآية(١٤١)وانظر: تفسير الطبري-٣٣٣/٥. الجامع لأحكام القرآن-القرطبي-٤١٩/٥.

(٢) انظر: أحكام أهل الذمة-ابن القيم-٢٠٨/١.

(٣) سورة الروم-رقم الآية(٧).

• الغِـيلة: بكسر الغين، ويجوز الفتح، من الغيل، وهي كما قال الإمام مالك وغيره: أن يجامع الرجل زوجـته وهي مرضع. انظر: موطأ مالك-كتاب الرضاع-رقم الحديث(١١١٧).انظر: النهاية في غريب الحديث-٤٠٢/٣.

ذَلِكَ فَلا يَضُرُّ أَوْلادَهُمْ)[١]. قال الشنقيطي: فأخذ ﷺ منهم ـــ يعني فارس والروم ـــ تلك الخطة الطبية و لم يمنعه من ذلك أن أصلها من الكفار[٢].

٢ ـــ ثبت عند أهل السير أن حفر الخندق في غزوة الأحزاب كان من رأي سلمان الفارسي، الذي قال: (إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا) فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة[٣]. فأخذ النبي ﷺ الخطة العسكرية التي كانت عند الفرس و لم يمنعه من ذلك أن أصلها للكفار[٤].

فالموقف الطبيعي للإسلام والمسلمين من تجارب الأمم الكافرة هو أن يجتهدوا ـــ المسلمون ـــ في تحصيل ما أنتجته من النواحي المادية، ويحذروا مما جنته من التمرد على خالق الكون جل وعلا، فتصلح لهم الدنيا والآخرة[٥].

ثانياً: الاستعانة بالكفار واستشارتهم: من خلال تحديد جمعيات القومية العربية لوظيفة المستشار الأجنبي يتبين إبراز سلطة الكفار على المسلمين، وأن لهم السلطة المطلقة من عزل وتوظيف وتفتيش وتفسير الأنظمة..الخ.

---

(١) صحيح مسلم-كتاب النكاح-بَاب جَوَازِ الْغِيلَةِ وَهِيَ وَطْءُ الْمُرْضِعِ -رقم الحديث(٢٦١٢).

(٢) أضواء البيان-الشنقيطي-٤/٣٨٣.

(٣) انظر: المغازي-الواقدي-٢/٤٤٥-عالم الكتب-بيروت-الطبعة الثالثة-١٤٠٤هـ.

(٤) أضواء البيان-الشنقيطي-٤/٣٨٣.

(٥) المصدر السابق-٤/٣٨٣.

لقد قُدِّمت دراسات فقهيةٌ تبحث في مسألة الاستعانة بالمشركين[١]، وليس هـــذا موضـــع إيراد تلك المباحث، وستحصر مناقشة موقف الجمعيات في هذه المسألة من خلال مهام المستشار.

إن هذه الاستعانة المذكورة تخالف نصوص الشريعة فهي ضد منهج الجمعيات القومية، ولأن هذا النوع من الاستعانة بمثل تحديد مهام المستشارين، فيها تسليط الكفار على المسلمين، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴿١٤١﴾ ﴾ . وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾[٢] .

فقـــد نهى الله في هذه الآية المؤمنين أن يتخذوا أهل الكفر بطانة من دون المؤمنين، وأن يستعينوا بهم في خواص أمورهم. وفي الآية دلالة على أنه لا تجوز الاستعانة بأهل الذمة في أمور المسلمين من العمالات والكتبة[٣].

وكان هذا فهم عمر بن الخطاب من هذه الآيات، فعندما قيل له: "إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة، لم يُرَ قطٌّ أحفظ منه ولا أكتب منه، فإن رأيت أن تتخذه

---

(١) انظر: أحكام أهل الذمة-ابن القيم الجوزية-١/٢٠٨ وما بعدها.

١. أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام-عبدالكريم زيدان.

٢. الاستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي-عبدالله الطريقي.

٣. الإسلام وأهل الذمة-علي حسني الخربوطلي.

(٢) سورة آل عمران-رقم الآية(١١٨).

(٣) أحكام القرآن-الجصاص-٢/٣٧،٣٦.

كاتباً بين يديك، إذا كانت لك الحاجة شهدك" فقال عمر: "قد اتخذت إذن بطانة من دون المؤمنين"[١].

والآيات التي ورد فيها النهي عن موالاة الكفار، من النصوص التي تمنع من جعل ولاية الكافر على المسلمين، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾[٢]. وهذا نهي من الله عز وجل المؤمنين أن يتخذوا الكفار أعواناً وأنصاراً وظهوراً[٣].

والثابت في سيرة الرسول ﷺ أنه لم يجعل ولاية كافر على مسلم، بل رفض عليه الصلاة والسلام مشاركة غير المشركين، ثبت في حديث عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: "خَرَجَ رَسُولُ اللَّه ﷺ قِبَلَ بَدْرٍ، فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ؛ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ، فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّه ﷺ حِينَ رَأَوْهُ، فَلَمَّا أَدْرَكَهُ، قَالَ لِرَسُولِ اللَّه ﷺ: جِئْتُ لأَتَّبِعَكَ وَأُصِيبَ مَعَكَ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ: (**تُؤْمِنُ بِاللَّه وَرَسُولِه**) قَالَ: لا، قَالَ: (**فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**) قَالَتْ: ثُمَّ مَضَى، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، قَالَ: (**فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ**

---

(١) مصنف بن أبي شيبة-كتاب الأدب-في اتخاذ كاتب نصراني-٨/٤٧٠-رقم الأثر(٥٩٢٣).

(٢) سورة آل عمران-رقم الآية(٢٨).

(٣) تفسير الطبري-٣/١٥٢.

بِمُشْـــرِكٍ) قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : **(فَانْطَلِقْ)**[1].

ومن مبدأ عدم إعطاء الكفار ولاية على المسلمين التزام حكام وأمراء المسلمين، فمن ذلك أن أبا موسى الأشعري، قال: "قلت لعمر رضي الله عنه: إن لي كاتباً نصرانياً. قال: مالَكْ؟ قاتلك الله أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾[2]، ألا اتخذت حنيفاً، قلت: يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه. قال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله"[3].

قـــال ابن القيم: "ودرج على ذلك الخلفاء الذين لهم ثناء حسن في الأمة، كعمر بن عبدالعزيز والمنصور والرشيد والمهدي والمأمون ...الخ".

فمما ذكره ابن القيم عن عمر بن عبدالعزيز، أنه: "كتب إلى جميع عماله في الآفاق: أما بعد فإن عمر بن عبدالعزيز يقرأ عليكم من كتاب الله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا

---

(١) صحيح مسلم-كتاب الجهاد والسير-بَاب كَرَاهَة الاسْتِعَانَة فِي الْغَزْو بِكَافِرٍ-رقم الحديث(٣٣٨٨) وانظـــر: شرح صحيح مسلم-١٢/١٩٩. وقال الترمذي: وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ سنن الترمذي-عند تعليقه على حديث رقم الحديث(١٥٥٨). وحرة الوبر، هي: موضع على ثلاثة أميال من المدينة. انظر: معجم البلدان-باب الحاء والراء.

(٢) سورة المائدة-رقم الآية(٥١).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة-٨/٤٧٠-رقم الأثر (٥٩٢٥). وانظر:

١. السنن الكبرى-البيهقي-٩/٢٠٤.

٢. أحكام أهل الذمة-ابن القيم-١/٢١٠.

ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[١] جعلهم الله ﴿حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[٢] وجعلهم (الأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً).

واعلموا أنه لم يهلك من هلك من قبلكم إلا بمنعه الحق وبسطه يد الظلم، وقد بلغني عن قوم من المسلمين فيما مضى أنهم إذا قدموا بلداً أتاهم أهل الشرك فاستعانوا بهم في أعمالهم وكتابتهم لعلمهم بالكتابة والجباية والتدبير، ولا خيرة ولا تدبير فيما يغضب الله ورسوله... فلا أعلمن أن أحداً من العمال أبقى في عمله رجلاً متصرفاً على غير دين الإسلام إلا نكلت به، فإن محو أعمالهم كمحو دينهم، وأنزلوهم منزلتهم التي خصهم الله بها من الذل والصغار.."[٣].

ولما سئل الإمام أحمد بن حنبل: أيستعمل اليهودي والنصراني في أعمال المسلمين مثل الخراج؟ قال: "لا يستعان بهم في شيء"[٤].

يظهر بعد هذا العرض أن اتفاق جمعيات القومية العربية على توظيف المستشارين الأجانب وتمكينهم من الولاية على أحوال المسلمين، مخالف لنصوص الشريعة ولما سار عليه ولاة المسلمين في هذا الأمر.

---

(١) سورة التوبة : رقم الآية : (٢٨).

(٢) سورة المجادلة : رقم الآية: (١٩).

(٣) أحكام أهل الذمة-ابن القيم-١/٢١٢.وانظر:الكامل في التاريخ-ابن الأثير-٥/٢٥.

(٤) أحكام أهل الذمة-١/٢٠٨.

obeikandl.com

إن المنهج الشرعي الذي سار عليه ولاة المسلمين، ليس فيه تقليل لأمر الشورى، والتي تعتبر من الأمور المهمة في سياسة الرعية ولهذا قال أبو هريرة (لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله) وقد قيل: إن الله أمر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه، وليقتدي به من بعده، وليستخرج منهم الرأي فيما لم يترل فيه وحي من أمر الحروب والأمور الجزائية وغير ذلك، فغيره ﷺ أولى بالمشورة[1].

ولأهمية الشورى فقد ذكر الفقهاء رحمهم الله تعالى شروطاً ينبغي أن يتصف بها المستشار من المسلمين، وهي كما يلي:

١ــ العقل الكامل مع التجربة.

٢ــ أن يكون ذا دين وتقى .

٣ــ أن يكون ناصحاً ودوداً.

٤ــ أن يكون صافي الذهن والفكر حال الاستشارة.

٥ــ ألا يكون في الأمر المستشار فيه غرض يتابعه، ولا هوى يساعده[2].

فإذا كانت هذه شروط من يستشار من المسلمين، فكيف بشورى الكافرين؟ وعند استعراض الماوردي للشروط التي يجب أن يتصف بها من يستشار من أهل الذمة يظهر تحديد وتقييد سلطته، والتي منها ما يلي:

---

(١) السياسة الشرعية-ابن تيمية-١٦٦.

(٢) أدب الدنيا والدين-الماوردي-٣٠٩-الطبعة الثانية-١٤٠٣هـ.

١ــ عدم مباشرة الحكم والنظر في المظالم.

٢ ــ لــيس له سلطه أو تصرف في أموال بيت المال سواء كان قبضاً أم دفعاً.

وبعد أن ذكر الماوردي هذه التقييدات قال: "وليس فيما عدا هذه ما يمنع أهل الذمة منها إلا أن يستطيلوا فيكونوا ممنوعين من الاستطالة"[١].

فمــن خلال الشروط والتقييدات التي أوردها الفقهاء في استشارة الكافر تبينت معارضتها لمهام المستشارين الأجانب والتي ذكرتها جمعيات القومية.

ويؤكد بطلان رأي الجمعيات في استشارة الأجانب حرص الدول الصليبية الشــديد وتدبيرهــا كــيداً لبلاد المسلمين، وتآمر الدول الصليبية على البلاد الإسلامية من أبرز أمثلة احتواء أعضاء جمعيات القومية العربية في الحرب العالمية الأولى، كمــا قــال أحد المتآمرين: "كنت أؤمن بالحركة العربية إيماناً عميقاً، وكنت واثقاً قبل أن أحضر إلى الحجاز أنها هي الفكرة التي ستمزق تركيا شذر مذر"[٢].

ويقــول أحــد منظري السياسة البريطانية:(إننا نعد الجمعيات والأحزاب العربية حلفاء لنا وأصدقاء.. ونوليها ما تستحقه من الاحترام والتقدير)[٣].

---

(١) الأحكام السلطانية-الماوردي-٣١ (بتصرف).

(٢) أعمدة الحكمة السبعة-لورانس-٥٥.

(٣) أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين-أمين سعيد-٢٤٤.

ومما جاء في خطاب وزير المستعمرات (أورمسبي غور) إلى رئيس الوزارة البريطانية (نيفيل تشمبرلين) بتاريخ ١٩٣٨/١/٩ «... إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، وليس الإمبراطورية البريطانية وحدها بل فرنسا أيضاً..

إن سياستنا تهدف وأبداً إلى منع الوحدة الإسلامية والتضامن الإسلامي، وينبغي أن تكون كذلك، ففي السودان ونيجريا كما هو الحال في مصر ودول إسلامية أخرى، شجعنا وبصواب نمو القوميات المحلية لكونها أقل خطراً من الوحدة والتضامن الإسلامي ..» [١].

(١) بريطانيا والخلافة الإسلامية-وثيقة تاريخية سياسية-عبدالوهاب أحمد.

openkandl.com

المبحث الثاني

موقف الجمعيات من عقيدة الولاء والبراء.

إن من أوثق عرى هذا الدين الحب والبغض في الله وأن تجتمع القلوب على محبة الله وطاعته. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (١).

وقد نفيت صفة الإيمان عمن يوالي من حاد الله ورسوله، قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٢).

ففي هذه الآية يخبر ربنا بأنه لا يوجد قوم يصدقون الله، ويقرون باليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله وشاقهما، وخالف أمر الله ونهيه، ﴿ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ ﴾ (٣).

---

(١) سورة المائدة-رقم الآية(٥٥).

(٢) سورة المجادلة-رقم الآية(٢٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري-٢٦/٢٨.

وقال ابن تيمية: من أحوال القلب وأعماله ما يكون من لوازم الإيمان الثابتة فيه، بحيث إذا كان الإنسان مؤمناً لزم ذلك بغير قصد منه ولا تعمد له، وإذا لم يوجد دل على أن الإيمان الواجب لم يحصل في القلب، ففي الآية السابقة أخبر أنك لا تجد مؤمناً يواد المحادين لله ورسوله فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينافي أحد الضدين الآخر، وإذا وجد الإيمان انتفى ضده، وهو موالاة أعداء الله، فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلاً على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب[1].

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[2]. ذكر الله (جملةً شرطيةً) تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف (لو) التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط، فقال: ﴿ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب. ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه[3].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية-١٦/٧.

(٢) سورة المائدة-رقم الآية(٨١-٨٢).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية-١٧/٧.

وقد بين أهل اللغة معنى كلمتي الولاء والبراء، بما تدلان عليه من معاني النصرة والإعانة، أو العداوة والبعد. فقالوا عن تعريف الولاء: أن الولي هو التابع المحب، ومنه قول الرسول ﷺ : (**من كنت مولاه فعلي مولاه**)[١] يعني من أحبني وتولاني فليتوله. والولاية على الإيمان واجبة، المؤمنون بعضهم أولياء بعض[٢].

وقال الشافعي عن حديث: (**من كنت مولاه فعلي مولاه**) يعني بذلك ولاء الإسلام، كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾[٣][٤].

وقال أهل اللغة: إن الولاية تكون إقبالاً، ومنه قوله جل وعز: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ ﴾[٥] أي وجه وجهك نحوه وتلقاءه. وعن مدلول كلمة المولى، قال أهل اللغة: بأنه الحليف، وهو من انضم إليك فعزَّ بعزِّك وامتنع بِمَنَعَتِك[٦].

---

(١) سنن الترمذي-كتاب المناقب-بَاب مَنَاقِبِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه-رقم الحديث (٣٦٤٦). وقال:هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٢) تهذيب اللغة-الأزهري-١٥/٤٤٨-دار الكتاب العربي-مطابع سجل العرب-القاهرة-١٩٦٧.

(٣) سورة محمد-رقم الآية (١١).

(٤) لسان العرب-ابن منظور-٣/٩٨٦.

(٥) سورة البقرة – رقم الآية (١٤٤).

(٦) تهذيب اللغة-الأزهري-١٥/٤٥١.

وعلى هذا المعنى ضرب أهل اللغة مثالاً بالموالاة هو: أن يتشاجر اثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح، ويكون له في أحدهما هوى فيواليه أو يحابيه[١].

والبراء يعني التخلص والتباعد، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾[٢] أي إعذار وإنذار، ويقال ليلة البراء، وهي ليلة يتبرأ القمرُ من الشمسِ، وهي أول ليلة من الشهر[٣]. وبَرئ إذا تخلص، وبَرئ إذا تنزه وتباعد[٤].

فمن هذا التعريف لكلمتي الولاء والبراء، تكون حقيقة الولاية وأصلها: تعني ضد العداوة. وهي المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد[٥].

منزلة الولاء والبراء من الدين:

أبين منزلة عقيدة الولاء والبراء من الإيمان أولاً، لما لها من منزلة عظيمة، وهي تعتبر من لوازم محبة العبد لله تعالى، فمن أحب الله تعالى أحب فيه، ووالى أولياءه، وعادى أهل معصيته وأبغضهم، وجاهد أعداءه ونصر أنصاره. وكلما قويت محبة العبد لله في قلبه قويت هذه الأعمال المترتبة عليها، وبكمالها يكمل

---

(١) لسان العرب-ابن منظور-٣/٩٨٦.

(٢) سورة البقرة -- رقم الآية (١٤٤).

(٣) المصدر نفسه-١/٣٢-٣٣.

(٤) تهذيب اللغة-الأزهري-١٥/٢٦٩.

(٥) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان-ابن تيمية-٦-المكتب الإسلامي-بيروت-الطبعة الرابعة.

توحيد العبد، ويكون ضعفها على قدر محبة العبد لربه، فمقل ومستكثر ومحروم[١].

وردت نصوص في كتاب الله وسنة رسوله تفيد تقريرَ وتأصيلَ معتقدِ الولاء والبراء، وأنه لا يلتقي الإيمان والكفر، كما لا يوالي أهلُ الإيمان أهلَ الكفر مهما كانت درجة قرابة ما بينهما، وجُعِل سبب الولاية الإيمانُ، وسبب العداوة الكفرُ. ومن هذه النصوص.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[٢]. فوصف الله الذين عادَوا ووالَوْا لغير الله بأنهم ظالمون، لأنهم خالفوا أمر الله، فوضعوا الولاية في غير موضعها، وعصوا الله في أمره[٣].

ومن النصوص القرآنية التي تنهى المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[٤].

---

(١) فتح المجيد-عبدالرحمن آل الشيخ-٢٩٧-دار الفيحاء-دمشق-١٤١٤هـ.

(٢) سورة التوبة-رقم الآية(٢٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري-٩٨/١٠.

(٤) سورة المائدة-رقم الآية(٥١).

وقوله جل ثناؤه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (١).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين والذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها هزواً يستهزئون بها، ولعباً يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد. وقولـــه تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ ﴾ أي لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء والمراد بالكفار ههنا المشركون.

وقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ أي اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم مؤمنين بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هزوا ولعبا كما قال تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢)(٣).

---

(١) سورة المائدة-رقم الآية (٥٧).

(٢) سورة آل عمران-رقم الآية(٢٨).

(٣) تفسير ابن كثير-٣/١٣١-١٣٢(بتصرف يسير).

وقد جاء ذكر نبي الله إبراهيم ﷺ بوصفه ومن اتبعه أسوة لمن يريد أن يتبع ملة إبراهيم ﷺ، في براءتهم من المشركين، وذلك في قوله: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1].

أي جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض، وهي كلمة لا إله إلا الله، وهي التي ورّثها إمامُ الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة[2].

والآيـــات أكثر من أن تحصى في كتاب الله مقررة معتقد الولاء والبراء في هذا الدين، وأما ما ورد في السنة فقد قال النَّبيُّ ﷺ: (**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حَـــلاوَةَ الإيمَان: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْه ممَّا سوَاهُمَا، وَأَنْ يُحبَّ الْمَرْءَ لا يُحبُّهُ إلا للَّه، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي الـــنَّارِ**)[3]. وفي لفظ آخر: (**لا يَجِدُ أَحَدٌ حَلاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ..**)[4].

---

(١) سورة الممتحنة-رقم الآية(٤).

(٢) الجواب الكافي-ابن القيم-٢١٣.

(٣) صحيح البخاري-كتاب الإيمان-باب حلاوة الإيمان-رقم الحديث(١٥).

(٤) المصدر نفسه-كتاب الأدب-بَاب الْحُبِّ فِي اللَّهِ-رقم الحديث(٥٥٨١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (**قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ[1] الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ**)[2].

فمما سبق كله يتضح أن عقيدة الولاء والبراء مستمدةٌ من كتاب الله وسنة رسوله، وبهذه العقيدة كانت العلاقة قائمة بين سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين، حتى أصبحوا كما وصفهم أبو الحسن الندوي: (لم يكونوا خَدَمَةَ جِنْس، ورُسُلَ شعبٍ أو وطن، يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده، ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها..إنما قاموا لِيُخْرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلى عبادة الله وحده ..)[3].

وأما عن موقف الجمعيات القومية العربية من عقيدة الولاء والبراء، فقد كان للمبادئ الماسونية والشعارات التي طرحتها ونادت بها كالحرية والمساواة، أعظمَ تأثيرٍ في نقض هذه العقيدة.

---

(١) معنى كلمة (عُبِّية): الكبر والنخرة. يريد بهذا القول ما كان عليه أهل الجاهلية من التفاخر بالأنساب والتباهي بها. وأصله من العبء، وهو الثقل. غريب الحديث-الخطابي-١/٢٩٠. وانظر: معالم السنن-الخطابي-٨/١٦.

(٢) سنن الترمذي-كتاب المناقب-بَاب فِي فَضْلِ الشَّامِ وَالْيَمَنِ-رقم الحديث(٣٩٥٦). وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وانظر: سنن أبي داود-كتاب الأدب-باب التفاخر بالأحساب-رقم الحديث(٤٤٥٢).

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين-أبو الحسن الندوي-١٢٦.

إن الاطلاع على التنظيمات الحزبية للجمعيات، والاطلاع على تصريحات المؤسسين والمنتسبين لها، يُظْهران انعدام عقيدة الولاء والبراء في مبادئ تأسيس الجمعيات ومناهجها، بل استبدال الولاء والبراء الشرعي وهو الذي يكون لله، بولاء وبراء جاهلي.

وقد اتخذت جمعيات القومية العربية مواقف معينة من عقيدة الولاء والبراء، فيما يلي استعراضها:

الموقف الأول: الولاء والبراء على أساس اللغة:

لقد أجمعت جمعيات القومية على أن أساس اجتماع العرب ووحدتهم هو على أساس اللغة، فكان ولاء وبراء أعضاء الجمعيات القومية من أجل اللغة.

وقد علل أعضاء الجمعيات اختيار الولاء والبراء لمبادئ القومية، بأن ذلك يؤدي إلى وحدة المشاعر والمنازع، ووحدة الآلام والآمال، ووحدة الثقافة وبكل ذلك، تجعل الناس يشعرون أنهم أبناء أمة واحدة، متميزة عن الأمم الأخرى[١].

كما صرح أعضاء جمعيات القومية العربية أن هذا الأساس أوسع شمولاً وأرحب صدراً من نظرية الدم والجنس والدين. لأنه يعتبر به عربياً قومياً كل متكلم باللغة العربية وليس له لغة أم غيرها[٢].

---

(١) ما هي القومية-ساطع الحصري-٢١٠.

(٢) حول الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة -١٨/١-المكتبة العصرية للطباعة والنشر - بيروت .

ويرى بعض منظري الفكر القومي، أن لو كانت العلاقات بين العرب بعضهم لبعض علاقة دينية لتساوى المسلمون في الدنيا جميعاً، وليس الأمر كذلك إذ الوشائج الدينية لا تغني في مثل هذا الأمر الخطير. ولا تقوم على أسس دينية قضية أمة دون أمة، وعلاقات دولة بدولة[١].

ومن هذا المنطلق اعتبر أعضاء جمعيات القومية العربية، نجاح تحقيق الولاء والبراء على أسسٍ قوميةٍ بأن اجْتَمَعَ المسلمُ السني والشيعي والدرزي والمسيحي في رحاب الجمعيات إخوانا متحابين هدفهم مجد العروبة وبعثها[٢].

وكان من أبرز مطالب جمعيات القومية العربية في المؤتمر العربي الأول: إقامة حكومة يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق والواجبات فلا يستأثر فريق بحق من الحقوق ولا يحرم فريق من حق من الحقوق، لا بداعي الجنس ولا بداعي الدين، عربياً كان أو تركياً ..أو مسلماً أو مسيحياً أو إسرائيليا أو درزياً[٣].

وفي تقرير هذا الهدف والدفاع عنه استدل بعض أعضاء جمعيات القومية، بالوقائع التاريخية، حيث ذكروا أن النعرة الجنسية فضيلة آلية في النفس ..ولما قدم أبوعبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد بجيوش العرب المسلمين إلى الشام، وجدوا حارساً على أبوابها الغسانيين وهم عرب نصارى يتقدمهم ملكهم

---

(١) قضية العرب-علي ناصر الدين-١٥٢.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-٣٥٥.

(٣) المؤتمر العربي الأول-١٠٤-خطبة اسكندر عمون.

المسيحي جبلة بن الأيهم. إلا أن هؤلاء بدلاً من قتال المسلمين والوقوف في وجوههم عطفوا عليهم عطفة الأخ، فتركوا الجامعة الدينية والرابطة السياسية اللتين كانتا تقضيان عليهم موالاة الروم، وخطبوا ود وولاء الناطقين بلسانهم بني أبيهم العرب، مهدوا لهم السبل وفتحوا الطرق ومكنوهم كل التمكين من فتح البلاد العربية، وما أبداه نصارى غسان من العصبية العربية في هذا الشأن الخطير لأعظم شاهد على أن العرب متحمسون بالجنس قبل الدين. وهي فضيلة الشعوب الحية، فضيلة الشعوب التي لا تريد أن تموت[١].

وقد كانت المدرسة الوطنية[٢]، التي أسسها بطرس البستاني كما يقول أعضاء جمعيات القومية العربية،تسعى لكي تؤلف القلوب بين متغايري الأديان متبايني المذاهب، وتذيع المبادئ الوطنية على صدق في جانب الدولة، وإخلاص في جانب الوطن. فانسل إليها الطلبة من كل نادٍ وصوب[٣].

ولدعم تحقيق الولاء والبراء على الأسس القومية تم عقد المؤتمر العربي الأول وأعلن فيه: (إن الأمة العربية أمة تطلب في الحياة حرية وعزاً، وتسعى وراء محو اختلافات جنسية ومذهبية كانت سبباً في شقائنا وشقاء تركيا معاً)[٤].

---

(١) المصدر السابق-خطبة ندرة مطران-٥٨. ولم أعثر في كتب السير على النص المذكور خلال فتوحات المسلمين لبلاد النصارى. وإيراد هذا الموقف.

(٢) انظر الفصل الرابع من الباب الأول من الرسالة-ص:(٢٨٩).

(٣) دائرة المعارف -بطرس البستاني-٥٩٠-دار المعرفة-بيروت-لبنان- (دائرة)

(٤) المؤتمر العربي الأول-١٤٣.

وأما الولاء الشرعي الذي يكون فيه الولاء لله والبراء مما سواه، فقد نبذته الجمعيات القومية العربية، إذ يرى أعضاؤها أن الاحتكام إلى الدين في أمور الدنيا صورة من صور خلط الدين بالدنيا، وفيه انحطاط بشأن السماويات بمزجها في الأرضيات.

ولتقرير مبدأ المعتقدات الماسونية قالوا عن الولاء الشرعي: بهذا نجعل للاعتقادات دخل في الأعمال، فتؤثر اختلافاتنا الدينية في أعمالنا العالمية فينشأ عنها ذلك الشقاق الذي طالما كرر الأمم وأتى بالحروب والويلات[١].

وتبرير آخر يؤكد عداء المعتقد الماسوني للولاء الشرعي: بأن الدين قل ما جمع كلمة أهله بأجمعهم إلا في الشاذ النادر، اللهم في العواطف دون الفعل..إن أقل هذه الروابط تأثيراً في المجتمعات رابطة الدين[٢].

ولذا أصبحت عبارات (الدين لله والوطن للجميع) و (نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد) و(إن محمداً لعربي قبل أن يكون مسلماً)[٣] شعارات ينادي بها أعضاء الجمعيات القومية العربية.

مضى القول أن أسوة الولاء الشرعي كان إبراهيم ﷺ ، وأما الولاء البدعي الجاهلي فقد بينت الجمعيات القومية أن الأمم النصرانية هي أسوتهم فيه.

---

(١) سلسلة الأعمال الكاملة-سليم البستاني-١٢٢.

(٢) مجموعة آثار رفيق العظم-(رسالة الجامعة الإسلامية)-٤٩.

(٣) الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية-وليم الخازن-٨٠.

أعلن أثناء انعقاد المؤتمر العربي الأول عن استبعاد الدين من مقررات المؤتمر، والتبعية تكون للبلاد الكافرة، بهذا البيان: "إنه حان للشرق أن يمشي في المسائل السياسية والاجتماعية مشية أخيه (الغرب)، الغرب اليوم مقتدى الشرق..وأن عدم اقتباس الشرقيين شيئاً من وسائل حرية الغربيين فيه من الخطر أضعاف أضعاف ما في الجمود على الحالات المعهودة فالاقتباس لا بد منه، وبذلك يكون واجباً علينا الشكر لأساتذتنا الذين لم يبلغوا مكانتهم في الاجتماع والسياسة مجاناً".

وقال رئيس المؤتمر: "إننا سنعترف بالجميل دائماً وأننا سنحتفظ لأوربا ذكرى ما نقتبسه منها... وقد جئنا أوربا ونريد أن يجيئها كثيرون منا لتكبر عقولنا وهممنا برؤية آثار العقول والهمم، جئنا أوربا ليزداد علمنا في حضارتها وأساليب اجتماعها الراقي"[1].

وعن تأثير المؤتمر في عقيدة الولاء والبراء، قال أعضاء الجمعيات: "لقد اتفق السوريون، وصافح المسلم النصراني على ما به خير الوطن، ورفع شأنه وإعلاء كلمته بين الأمم، وما أحلى توقيع الصديق الفاضل الشاعر المجيد شكري أفندي غانم ـــ نصراني ـــ شقيقه بالوطنية جميل مردم بك، وتوقيع عزيزي ندرة ـــ نصراني ـــ بإزاء مواطني محمد محمصاني وهلم جرا..وإذا دام هذا الإخاء والاتفاق و لم يعتره تحاسد ولا تضاغن ولا تنافس ولا تفريق فإنه سيكون حينئذ عنوان الخير لبلادنا التعسة التي بقيت في مؤخرة البلاد في النهضة والتقدم"[2].

---

(١) المؤتمر العربي الأول-٣١.

(٢) مذكرات سليم علي سلام-٢٥١-ملحق رقم (٧).

وبعد تأكيد هذه التبعية التي قال عنها الرسول ﷺ محذراً عنها: **(لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ**، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: **فَمَنْ**)[١].

وغرر أعضاء جمعيات القومية العربية بالأمة، قائلين: "بأنه من الواجب تنزيهاً لمقام الدين ــ كما تعتقده الجمعيات القومية العربية ــ أن يضعوا أديانهم جانباً في مكان مقدس محترم، ليتمكنوا من الاتحاد اتحاداً حقيقياً ومجاراة تيار التمدن الأوربي الجديد لمزاحمة أهله، وإلا جرفهم جميعاً وجعلهم مسخرين لغيرهم"[٢].

الموقف الثاني: الزعم بعدم وجود خلاف بين المسلمين والنصارى:

إن حقيقة الولاء والبراء هي معاملة الناس بناء على قربهم أو بعدهم من الله[٣]، ولهذا قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[٤].

---

(١) صحيح البخاري-كتاب الاعتصام بالكتاب-بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ -رقم الحديث (٦٧٧٥).

(٢) الفكر العربي في عصر النهضة-ألبرت حوراني-٣٠٤.

(٣) انظر:الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان-ابن تيمية-٤٨.

(٤) سورة التوبة-رقم الآية(٢٣).

وقد حكم الله بتحريم موالاة من كان على غير الإيمان بقوله جل جلاله :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾[1].

هـــذا مـــا ينص عليه الولاء الشرعي، وأما الولاء الجاهلي الذي اعتقدته الجمعيات القومية العربية، فقد تبنت فيه مبدأ ما تسميه التسامح الديني، وألغت جمـــيع الفـــوارق الدينية بين العرب، وبهذا الأمر أكد مؤسسو الجمعيات على وجـــوب التقاء وتآخي المسلم والنصراني، وقالوا: "نحن معاشر المسلمين الذين يؤمـــنون بـــأن الله واحد أحد، مصدر الخير، وفيه تجتمع الكمالات، فنتفق تمام الاتفاق مع إخواننا النصارى فيما يعتقدونه بالله تعالى".

وأكدوا على أنه عبث حقير أن يحاول أحد أن يضع فروقاً بيننا لاختلافات ثانوية لا شأن لها في الله، ولا شأن لها في الآخرة، ولا شأن لها في الوطنية[2].

وبعـــد أن أكـــد الأعضاء القوميون على عدم وجود خلاف بين الإسلام والنصـــرانية، قرروا تحقيقاً لمبدأ الولاء الجاهلي، بأن الدم العربي الصريح في كثير من النصارى من ناحية، والتاريخ واللغة من ناحية أخرى، يجمعان بين مسلمي العـــرب ونصاراهم. ويجعلان وجود النصارى بين أكثرية سكان الوطن العربي الكبير غير مؤثر في توفير أسباب الوحدة عامة، وغير معكر لصفاء توفر الوحدة الروحية خاصة..

---

(١) سورة المائدة-رقم الآية(٥١).

(٢) عبدالرحمن الشهبندر-حياته وجهاده-حسن الحكيم-١٥٣.

وبعد تحرير أساس الولاء الجاهلي بأنه التاريخ واللغة، أكد أعضاء الجمعيات على أنه ليس هناك أي داع حقيقي لتدابر روحي بين النصارى والمسلمين العرب، بسبب اختلاف الدين وطبيعته الذاتية، من شأنه أن يعكر على ما يتوفر بين سكان الوطن العربي من أركان الوحدة الجنسية واللغوية والتاريخية.

ومن منطلق هذا الولاء: فليس بين الإسلام والنصرانية تناقض في الأهداف والدعوة بالنسبة للحياة ومثلها. وكلاهما نابعان من نبع واحد. والإسلام يعترف بقداسة السيد المسيح ونبوته وإنجيله.

ومن منطلق هذا الولاء: ليس هناك أي تباين بين النصارى والمسلمين في المصالح العامة، سواء أكان في مجال السياسة والحكم والتنظيم والتشريع، أم في مجال الحقوق والواجبات، أم في مجال الاقتصاد والاجتماع، أم في مفهوم وأهداف الفكرة العربية، وما يعود على الفريقين من منافع وعز وسؤدد نتجة تحققها.

وليس للدين والتمايز الديني أي دخل في كل ذلك، لأنه ممارسة وجدانية، ولأن الدين الإسلامي المؤثر في حياة المسلمين، يضمن كل الضمان حقوق المواطنين من غير المسلمين وحرياتهم...والمسيحية النقية تبشر بالمحبة والسلام وتحارب الأحقاد والمآرب الشخصية..

وإذا كان هناك شيء من أعراض الحذر والانقباض والتعصب، فإن ذلك لا يمت إلى الدين بسبب، وأسبابه تاريخية.

فقد انكشفت للنصارى نيات المستعمرين السيئة المريبة نحو العرب، مسلميهم ونصاراهم على السواء.. واستنارت الأفكار، وأخذت تدرك وتلمس وهن الأسس التي ترجع إليها تلك الأغراض، وعدم صلتها بالمبادئ والتعاليم الدينية والمصلحة القومية والوطنية.

كما أخذت تلمس قوة التشارك بين المسلمين والنصارى في القومية الوطنية والمصلحة الخاصة والعامة، فقرب كل هذا بين الطرفين، وأزال كثيراً من آثار تلك الأغراض ، وجعل النصارى يندمجون في الحركات الوطنية والنضالية التي قامت في البلاد العربية...حتى ليصح أن يقال: إن جمهور النصارى في البلاد العربية، قد أخذ يندمج في المجموع العربي العام اندماجاً صادقاً عاطفة ومصلحة ووطنية وقومية[1].

فمن منطلق دعوة التقارب بين المسلمين والنصارى، وإنكار وجود خلاف بينهما فقد طمحت جمعيات القومية العربية إلى خلق مذهب قومي عربي تتلى بموجبه الصلوات كلها بالعربية..

وقالوا: وأي ضير يتأتى من أن تصبح اللغة العربية ــ لغة القرآن والإسلام العالمي ــ لغة المذهب كاثوليكي؟ وأن تؤسس بطريركية خاصة لهذه الكنيسة الجديدة تحتوي كل المذاهب الأخرى في سنوات معدودة .. ويتعاطف المسلمون مع المسيحيين أيضاً لأنهم يرونهم يقتربون منهم من أجل السلام والخير العميم للوطن المشترك، الوطن العربي[2].

---

(١) مختارات قومية-محمد عزة دروزة- ٦٤١-٦٤٣.

(٢) يقظة الأمة العربية- نجيب عازوري - ١٧٦.

ومن هذا المبدأ ربط محمد عزة دروزة ـــ وهو أحد مؤسسي جمعيات القومية ـــ بين حكم الشريعة في طعام أهل الكتاب وبين عقيدة الولاء، وفي قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾[١].

قال دروزة: القرآن قرر في آيات ومواضع كثيرة وحدة المنبع والهدف التي تجمع بين المسلمين وأهل الكتاب وتجعلهم بمثابة جبهة واحدة وأمرت المسلمين باحترام كتبهم وأنبيائهم، فجاء هذا التشريع المستمد من تلك الوحدة التي ينطوي فيها تقرير كون الكتابيون مؤمنين بالله على كل حال ولا يشبهون المشركين والوثنيين، خطوة جديدة قوية في سبيل إزالة الجفوة وتوطيد التآنس والتواثق والتعامل والتقارب عملياً بينهم، ووسيلة لإظهار محاسن الإسلام ورحابة صدره... والحكمة الملوحة في النص على تبادل حل الطعام بين المسلمين والكتابيين هي التأنيس وقصد التواصل والتعايش بين الذين يجمعهم في العقيدة والمبادئ مصدر واحد هو الله تعالى[٢].

وقال محب الدين الخطيب بمثل هذا المبدأ، حيث ذكر أن الله أحل طعام أهل الكتاب وذبائحهم ترغيباً في التواصل والتآلف والتفاهم والتعارف[٣].

---

(١) سورة المائدة-رقم الآية(٥).

(٢) المرأة في القرآن والسنة-محمد عزة دروزة-١٦٣و١٧١.

(٣) جريدة القبلة-السنة الأولى-العدد ٥٢-بتاريخ ١٣٣٥/٤/١٩-ص:١-بعنوان:الإسلام والجامعة العربية.

الموقف الثالث: يختلفون في العقيدة ويتفقون في المعتقد القومي:

هـذا موقـف مـن مواقف الجمعيات القومية من عقيدة الولاء والبراء، ويلاحـظ تقريرهم لمبدأ عدم اختلاف المنتسبين للجمعيات في العقائد الدينية، ولكن لا يقبل الاختلاف في المبادئ القومية.

ويعتـبر كـتاب(يقظة العرب)[1] من أهم كتب الجمعيات القومية، الذي تـناول التقسـيم الجغـرافي للبلاد العربية، والنظر من خلال هذا التقسيم إلى المعتقدات الدينية.

فكـان من نتائج هذه الدراسة: "أنه لا يوجد بين دجلة وبرزخ السويس ومـن البحر المتوسط حتى بحر عمان سوى أمة واحدة هي الأمة العربية ، التي تتحدث بلغة واحدة ، وتمتلك تقاليد تاريخية واحدة وتدرس الأدب ذاته ، وكل فرد من هذه الكتلة العنصرية يفتخر بالانتماء إلى الوطن العربي.

إن قـاطني هـذه البلدان الشاسعة لا يتميز بعضهم عن البعض الآخر إلا بالأديـان والطوائـف والمذاهب التي لا تحصى. مثال ذلك: مسلمين سنيين ، ومسـلمين شـيعة ، ونصيريين ، ودروز ، وموارنة .... الخ والاختلافات بين المسـلمين والمسيحيين وبين الكاثوليك والأرثوذكس هي أقل بما لا نهاية له من الاختلافات بين مختلفي المذاهب .. إنها حقيقة شائنة" .

قرر مؤلف الكتاب بعد هذا التقسيم والإحصاء: أن التعصب الديني غريب تماماً عن هذه الأحقاد الجهنمية. والشعب الفقير لا يفهم شيئاً ولا يقيم أي أهمية

---

(١) مؤلفه: نجيب عازوري مؤسس جمعية رابطة الوطن العربي.

لهذه الاختلافات المذهبية.. وهنا يجب ترديد المبدأ المدون من قبل بشكل آخر: التعصب الديني ليس سوى تطور في المصلحة الشخصية.

هذا عما سماه (بالتعصب الديني)، وقال عن التعصب القومي: إن التعصب القومي شعور عفوي فطري تقريباً كمثل الشعور العائلي الذي يأخذه بعين الاعتبار كل سياسي ، والذي يوجب إبعاد كل قضية دينية، هكذا لا يتباغض المسلمون والأقباط في مصر المسلمة[١].

فالاعتبار في التآخي عند جمعيات القومية العربية يكون بالأخوة القومية، كما قال أحد منظري الفكر القومي: إنني أعتبر كل عربي، مهما يكن منشؤه، ومهما تكن عقيدته الدينية، أخاً لي، وإنني أفهم المصلحة العامة وأحترمها وأعمل لها، وإنني أقدس الحق والبطولة[٢].

اعتبرت جمعيات القومية العربية التمسك بالدين أصل أسباب الانقسام والفرقة، قال أحد أعضاء الجمعيات: "لقد تعبت الأمة العربية تماما من الانقسامات التي انبعثت من مسائل مذهبية تافهة، وسترتمي في أحضان أول آتٍ شريطة أن يوفر لها الاتحاد والوئام اللذين تحتاج إليهما حاجة ماسة"[٣].

ولإضفاء الصبغة الشرعية على تقرير الولاء القومي، أكد محمد عزة دروزة على أن تعاليم القرآن لا تحتوي أي مانع من اعتبار غير المسلمين من العرب

---

(١) يقظة الأمة العربية -نجيب عازوري- ١٦٧-١٦٨.

(٢) قضية العرب-علي ناصر الدين-١٤.

(٣) يقظة الأمة العربية - نجيب عازوري - ١٧٧.

المسالمين والمتضامنين مع مسلميهم، إخواناً لمسلميهم في القومية، ومن التعامل معهم على هذا الاعتبار في نطاق الدولة والكيان الاجتماعي معاً[١].

ومن منطلق الولاء القومي ألزم أعضاء جمعيات القومية العربي المسلم أن ينظر إلى مواطنه المسيحي وأن يذكر الآية القرآنية الكريمة ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[٢].

ومن أبرز دلائل تحقيق التسامح في الخلاف العقدي لا الخلاف القومي، أن أعضاء الجمعيات القومية قالوا: كان القوميون العرب من مسلمين ومسيحيين يطمحون إلى إنشاء دولة عربية مستقلة يتمتع فيها جميع سكان البلاد ــ بغض النظر عن دينهم وعقيدتهم ــ بالمساواة التامة في الحقوق والواجبات[٣].

يتبين من خلال دراسة كتاب (يقظة العرب) وتصريحات مؤسسي وأعضاء الجمعيات، أن جمعيات القومية العربية قد أهملت عقيدة الولاء والبراء في الدين و لم تعتبرها أصلاً في تحديد علاقاتها مع الآخرين؛ بل حاربتها.

وفي الجانب الآخر لم ترض الجمعيات الولاء والبراء إلا على أسس المبادئ القومية. كما قال عزت الجندي:"إننا عرب قبل كل شيء، المسلم عربي والمسيحي عربي...إننا عرب قبل أن نكون مسلمين، والمسيحي عربي قبل أن

---

(١) الدستور القرآني في شئون الحياة-محمد عزة دروزة-١٣.

(٢) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها-مصطفى الشهابي-٣٤٧. وانظر الرد على تأويل الآية في الفصل الأول-موقفهم من القرآن الكريم-ص:(٤٠١).

(٣) أوراق محب الدين الخطيب-القاهرة.

يكـــون مســـيحياً ... وقـــد تركـــنا مسألة الديانات والعبادات إلى الجوامع والكنائس"[١].

وهذا المبدأ لا يرغب أعضاء جمعيات القومية العربية أن يكون مشاعاً بين أعضاء الجمعيات فقط، بل يكون هو الأمر الظاهر بين العرب جميعاً، فقد صرح مؤسســـو الجمعـــيات بقولهم: نود أن تكون هذه الوطنية مشاعاً بين المسلمين والمســـيحيين فالـــناس يختلفون في عقائدهم الدينية، ولكن حياتهم الاجتماعية تسوقهم إلى الاشتراك في مثل أعلى يجتمعون على حبه وإكباره[٢].

كان تبني إشاعة هذه المبادئ في الناس كي يعتقد المجتمع مبادئ الجمعيات، لتحقيق أمة يتخلى أفرادها عن مبادئ دينهم ويعتنقون المعتقدات الجاهلية، كما صُـــرّح بهذا الأمر في المؤتمر العربي الأول، فقد قال عبدالحميد الزهراوي: الأمة التي نعنيها هي الجماعات التي فيها روح القومية، وأما إذا طارت هذه الروح من الأشباح فإن الأمر يكون كما ذكرنا من الشتات وعدم الجامع.

فضالتنا التي ننشدها اليوم هي تلك الروح التي صارت بها الأمم أمماً، فمتى ظفرنا بها صرنا أمة بأقرب من لمح البصر. وما دامت تلك الروح غائبة عنا فما نحن إلا أشباح، لا تَشْغَلُ جموعُنا حيزاً في هذا الوجود، ولا نأخذُ نصيبنا في نظر العالم[٣].

---

(١) الأهـــرام - ١٠٦٨٢ بتاريخ ١٩١٣/٤/٢٢م . نقلاً عن كتاب: العرب والترك –توفيق برو- ٢٦٥.

(٢) عبدالرحمن الشهبندر -حياته وجهاده-حسن الحكيم-٣٨٩.

(٣) جريدة المفيد رقم ١٣٧٠بتاريخ١٩١٣/٩/٨م(نقلا من كتاب العرب والترك-توفيق برو-٤٨١).

بعد عرض مواقف الجمعيات القومية العربية من عقيدة الولاء والبراء، وقبل مناقشة تلك المواقف أرى الإشارة إلى حقيقتين ظهرتا من خلال عرض مواقفهم من عقيدة الولاء والبراء. وهاتان الحقيقتان هما:

١. إن الجمعيات القومية العربية، لم تؤسس على أصول من العقيدة محددة، لذا فهي لا تعتبر المعتقد شرطاً في اكتساب عضوية الجمعية.

٢. الثناء والإطراء على ملاحدة الشرق والغرب. والإعجاب بهم.

ترتب على الحقيقة الأولى أن أعضاء وبعض المؤسسين للجمعيات القومية العربية كانوا أخلاطاً من اليهود والنصارى والنصيريين والدروز ...الخ .

وترى جمعيات القومية العربية في هذا الأمر أبرزَ عوامل تحقيق الوحدة الوطنية، فقد قال أعضاء الجمعيات القومية: هذه المنظمات التي أنشأها شباب وكهول مسلمون ومسيحيون اشتراكا أو انفراداً[1].

كان هذا الخلط العقائدي من برامج الجمعيات، ومثال ذلك: كان من ضمن برنامج المنتدى الأدبي أن يتباحث أعضاء جمعيات القومية العربية حول خطة مثلى تتعلق بإصلاح المدارس الابتدائية في البلاد العربية، وذلك في عام ١٩١١م، واقترح أن يكون هناك برنامجاً يرمي إلى إنهاض البلاد العربية على دعامتين:

---

(١) حول الحركة العربية الحديثة-محمد عزة دروزة-١/١٩.

١ــ توثيق عرى الإخاء بين العرب على اختلاف أديانهم وطوائفهم حتى لا يذكر منهم في السياسة والوطنية غير عروبيته .

٢ ــ توحيد التعليم في البلاد العربية ..[١].

ويذكر أعضاء الجمعيات في مذكراتهم انتساب أصحاب المعتقدات الباطلة إلى الجمعيات، فمن ذلك انتساب الدكتور نسيم ملول أحد سكان يافا اليهود وصار عضواً عاملاً في تشكيلات حزب اللامركزية منذ ١٩١٣م.

قال مؤسس حزب اللامركزية: « لما أسسنا حزب اللامركزية وقمنا بالحركة العربية، بادر الصهيونيون فأرسلوا إلى مصر أحد زعمائهم ليختبر حالتنا، وهو الذي حضر مؤتمر باريس، وقابلنا وتفاوض معنا في مركز اليهود بازاء الحركة العربية، فأفهمناه أننا جماعة مبدأنا الديموقراطية وعندنا أن كل أبناء الوطن السوري سواء في الحقوق والواجبات، وأن اليهود إذا تجنسوا بالجنسية الوطنية كانوا كغيرهم من أبناء هذا الوطن، على شرط أن تحدد هجرة الصهيونيين إلى البلاد، وأن لا يبقى منهم شخص أجنبي لا يتجنس بالجنسية العثمانية ، وأن يعلموا في مدارسهم اللغة العربية ويعلموا أبناء البلاد في هذه المدارس إلى غير ذلك من الشروط » [٢].

كما تم عقد لقاء بين أعضاء جمعيات القومية العربية، وبين رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية، وتم الاتفاق على مناقشة النقاط التالية:

---

(١) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني - ٢٦٦.

(٢) أوراق محب الدين الخطيب-القاهرة.

أولاً ــ أن العــرب والــيهود من جنس واحد ولكل منهما مزايا متممة للآخر .. فالتوفيق بينهما يكون لخيرهما وخير الشرق كله .

ثانــياً ــ يســتقبل العرب اليهود في البلاد العربية كإخوان لهم على أن يتجنس اليهود بالجنسية العثمانية وأن لا تكون فلسطين خاصة بهم .

ثالثاً ــ في مقابل ذلك يتعهد اليهود بوضع قواهم الأدبية والمادية في خدمة القضــية العربية ويؤازرون الأحزاب العربية ويضعون تحت تصرفها ثلاثة ملايين من الجنيهات .

رابعــاً ــ يعقــد مؤتمــر عربي يهودي في مصر أثناء عودة نواب سورية والعراق من استنبول إلى بلادهم ...).

وقــد تم عقد هذا الاجتماع بين رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية، ونواب العــرب وبعــض رجال الجمعية الإصلاحية ببيروت وكانوا عائدين حينئذ من بــاريس ــ أي في عام ١٩١٣ ــ، فقر قرارهم على أن يعقد مؤتمر في القاهرة يحضره نواب سورية وفلسطين والعراق والحجاز مع بعض زعماء اليهود للنظر في الاقتراحات المتقدم ذكرها ..)[1].

وأمــا عــن انتســاب النصارى فإن أصل القضية العربية هو من تأسيس النصــارى العرب كما سبق بيانه ولهذا كانوا رؤساء لبعض الجمعيات، التي من آخرها حزب البعث الذي تولى رئاسته النصراني ميشيل عفلق. وتفرع هذا الأمر

---

(١) مذكــراتي على هامش القضية العربية - أسعد داغر - ٣٤- ٤٤. واسم رئيس اللجنة التنفيذية: الصهيونية هو (جاكبسون).

في بقية فروع حزب البعث فكانت معظم الكوادر القيادية دون القيادة القطرية مسيحية[١].

هـذا مـا يتعلق بالحقيقة الأولى، أمّا ما يتعلق بالحقيقة الثانية وهي الثناء والمدح لأفكار الملاحدة والكفرة وما قدموه من مبادئ ضالة.

فمثال ذلك: قول محمد عزة دروزة عند حديثه عن أهمية وجود الزعيم في الحركات السياسية المنظمة وعن الصفات التي يجب أن يتحلى به ، قال:(والمدقق في الحركات القومية النضالية في الغرب يرى مصداق هذا في تاريخ بلدان كثيرة كأيرلندا وبولندة وإيطالية وألمانية.

وقـد كـان في الشـرق امثولتان عظيمتان من ذلك، تمثلت في (كمال آتـاتورك) والحـركة الوطنية الاستقلالية في تركيا الحديثة ، وفي (غاندي[٢]) والحركة الوطنية الاستقلالية في الهند .

---

(١) سياسي يتذكر تجربة في العمل السياسي-جمال الشاعر-٦٤. وانظر:
١. المؤتمر العربي الأول-١٤.
٢. أسرار الثورة العربية لكبرى-أمين سعيد-٢٤٢-دار الكاتب العربي.
٣. حزب البعث العربي-جلال السيد-٨٤. (بتصرف يسير).

(٢) غاندي: موهانداس كرمشند(١٨٦٩ – ١٩٤٨) زعيم سياسي وروحي هندي. لقب بـ(المهاتما Mahatma) أي النفس الكبيرة. نادى باللاعنف، وبالمقاومة السلبية. عمل على تحرير الهند من نير الاستعمار البريطاني فدعي (مهندس الاستقلال الهندي). دعا إلى إزالة الحواجز بين الطبقات الاجتماعية، وإلى الوحدة بين الهندوس والمسلمين والسيخ. قتله هندوسي متعصب. أشهر آثاره سيرته الذاتية التي دعاها (قصة تجاربي مع الحقيقة) The Story of My Experiments with Truth (عام ١٩٢٧) وقد نقلها إلى العربية منير البعلبكي. انظر: (روح عظيم "المهاتما غاندي"-عباس محمود العقاد).

قـــال دروزة عن هذين الشخصيتين: لقد تمت على يدي هذين الزعيمين العظيمين الموسرين معجزة خارقة ما كانت لتتم لولا اتصافهما بصفات الزعيم القـــوي في إيمانه وقلبه وعقله وروحه وإقدامه ودأبه وتجرده وتضحيته)[١]. كما مـــدح أعضاء جمعيات القومية البارزين من رجال الثورة الفرنسية وأهم الدعاة إليها[٢].

مناقشة مواقف جمعيات القومية العربية:

بعـــد بيان موقف جمعيات القومية العربية، من عقيدة الولاء والبراء، التي ســـبق في بدايـــة المبحث الإشارة إلى مكانتها من الدين، انكشفت المخالفات الشـــرعية عند الجمعيات ودعوتها إلى العودة الجاهلية التي نبذها الإسلام، وحذر مـــنها، كما في قول الرسول ﷺ: (**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**)[٣].

ودعـــوى الجاهلية هي التناصر والولاء على الباطل والظلم[٤]، كما ترجم البخاري في صحيحه: باب ما يُنهى من دعوى الجاهلية[٥]، وذكر الحديث الذي ورد فـــيه تشـــاجر المهاجـــرين والأنصـــار: وَقَالَ الأَنْصَارِيُّ يَا لَلأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: (**مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ**

---

(١) حول الحركة العربية الحديثة - محمد عزة دروزة - ٩٤/١.

(٢) انظر: مجموعة آثار رفيق العظم-(رسالة الجامعة الإسلامية وأوربة)- ٥٩.

(٣) صحيح البخاري-كتاب الجنائز-بَاب لَيْسَ مِنَّا مَنْ شَقَّ الْجُيُوبَ-رقم الحديث(١٢١٢).

(٤) انظر: فتح الباري-ابن حجر-٦٣٢/٦.

(٥) صحيح البخاري-كتاب المناقب-باب ما ينهى من دعوى الجاهلية.

ثُمَّ قَالَ مَا شَأْنُهُمْ فَأُخْبِرَ بكسعة[١] الْمُهَاجِرِيِّ الأَنْصَارِيَّ قَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : **دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ)**[٢].

والولاء الشرعي لا يكون للغة أو لعشيرة، إنما الولاء يكون للمؤمنين مهما كانت لغاتهم وأوطانهم، والبراءة من الكافرين تكون دون النظر للغاتهم أو أنسابهم، وفي الحديث سئل النبي ﷺ: (مَنْ أَكْرَمُ النَّاس؟ قَالَ: **أَتْقَاهُمْ**، فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: **فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّه ابْنُ نَبِيِّ اللَّه ابْنِ نَبِيِّ اللَّه ابْنِ خَلِيلِ اللَّه**، قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: **فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِ! خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقُهُوا)**[٣].

فأراد النبيﷺ في هذا الحديث أن من كانت له مأثرة وشرف، فإذا أسلم وفقه، فقد حاز إلى ذلك ما استفاده بحق الدين، ومن لم يسلم فقد هدم شرفه وضيعه[٤].

---

(١) كسعة: يعني ضرب الدبر باليد أو الرجل. وفي رواية الطبري: أن رجلاً من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار برجله. وذلك في أهل اليمن شديد.انظر:
١. القاموس المحيط-باب العين-فصل الكاف.
٢. النهاية في غريب الحديث-ابن الأثير-١٧٣/٤.
٣. فتح الباري-ابن حجر-٥١٧/٨.

(٢) صحيح البخاري-كتاب المناقب-باب ما ينهى من دعوى الجاهلية-رقم الحديث(٣٢٥٧).

(٣) صحيح البخاري-كتاب أحاديث الأنبياء-بَاب قَوْلِ اللَّه تَعَالَى (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) وَقَوْلِهِ (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ) وَقَوْلِهِ (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)-رقم الحديث(٣١٠٤).

(٤) شرح السنة-البغوي-٥٨/١٤.

وسوف ينحصر الرد على موقف جمعيات القومية العربية من عقيدة الولاء والبراء في النقاط التالية:

الأمـــر الأول: دعـــوى أنـــه لا خلاف بين الإسلام والنصرانية ولا بين النصـــارى والمســـلمين؛ من أشنع الباطل في عقيدة الولاء الجاهلي عند جمعيات القومية العربية، ويمكن تلخيص منهجهم المنحرف بالنقاط التالية، بعد أن بسط القول فيه من قبل معزواً لأصحابه:

١.إنّ الجمـــيع ـــ الإســـلام والنصرانية ـــ يتفقون فيما يعتقدونه في الله تعالى. والفرق الذي بين الإسلام والنصرانية فروق واختلافات ثانوية لا شأن لها في الله، ولا شأن لها في الآخرة، ولا شأن لها في الوطنية[1].

٢.لـــيس بـــين الإسلام والنصرانية تناقض في الأهداف والدعوة إلى الحياة ومُثْـــلها. وكلاهما صادر عن نبع واحد. والإسلام يعترف بقداسة السيد المسيح ونبوته وإنجيله.

٣.وليس هناك أي تباين بين النصارى والمسلمين في المصالح العامة، سواء أكـــان في مجـــال السياســـة والحكـــم والتنظيم والتشريع، أم في مجال الحقوق والواجبات، أم في مجال الاقتصاد والاجتماع.

٤.لـــيس هـــناك أي داع حقيقي لتدابر روحي بين النصارى والمسلمين العرب، بسبب اختلاف الدين وطبيعته الذاتية، من شأنه أن يعكر على ما يتوفر بين سكان الوطن العربي من أركان الوحدة الجنسية واللغوية والتاريخية.

---

(١) انظر: عبدالرحمن الشهبندر-حياته وجهاده-حسن الحكيم-١٥٣.

٥.ليس للدين والتمايز الديني أي دخل في كل ذلك، لأنه ممارسة وجدانية، ولأن الديـــن الإســـلامي المؤثر في حياة المسلمين، يضمن كل الضمان حقوق المواطـــنين مـــن غير المسلمين وحرياتهم...والمسيحية النقية تبشر بالمحبة والسلام وتحارب الأحقاد والمآرب الشخصية.. وإذا كان هناك شيء من أعراض الحذر والتعصب، فإن ذلك لا يمت إلى الدين بسبب[١].

مـــن هـــذه المفاهـــيم الجاهلية قررت جمعيات القومية العربية عدم وجود خـــلاف بين الإسلام والنصرانيه، وقد سبق الحديث عن تأويل جمعيات القومية العربية لآيات القرآن الكريم المتعلقة بعلاقة المسلم بالنصراني.

ومـــا لا شك فيه حينما تنشر هذه المفاهيم في واقع المسلمين ويلزم الواقع العمل بمقتضاها، فإنه يؤدي إلى نقض عقيدة الولاء والبراء.

ومـــن المقرر في كتاب الله وسنة رسوله وكلام أهل الإسلام أنه ليس بين الإسلام والنصرانية التقاء في جميع ما ذكر، وذلك أن عقيدة النصارى الشركية باطلـــة، ابتدعوها بعد المسيح عليه السلام، وحرفوها عما جاء به الدين الحق، فضـــل منهم من عدل عن شريعة المسيح إلى ما ابتدعوه. ثم لما بعث الله محمداً كفـــروا بـــه، فصار كفرهم وضلالهم من هذين الوجهين: تبديل دين الرسول الأول، وتكذيب الرسول الثاني[٢].

---

(١) مختارات قومية-محمد عزة دروزة- ٦٤١-٦٤٣.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح-ابن تيمية-١/١٠٩-١١٠ (بتصرف يسير).

والفـــروق بين الإسلام والنصرانية في كتاب الله وسنة رسوله أكثر من أن تعد وتحصى، بل إن الاختلاف في العقائد واقع بين النصارى أنفسهم، فلما رفع عيســـى عليه السلام اختلف الحواريون وغيرهم فيه..وافترقوا إلى اثنتين وسبعين فـــرقة[١]، كما ورد في الحديث (**تَفَرَّقَت الْيَهُودُ عَلَى إحْدَى وَسَبْعِينَ أَوِ اثْنَتَيْنِ وَسَـــبْعِينَ فِـــرْقَةً، وَالنَّصَـــارَى مِثْلَ، ذَلِكَ وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً**)[٢].

فكيف تزعم جمعيات القومية العربية أن الاختلاف بين الإسلام والنصرانية اختلاف ثانوي[٣]، وقد قال السلف عن طوائف النصارى: يتكلمون بكلام لا يعقلـــون معناه ليس منقولاً عن الأنبياء حتى يسلم لقائله بل هم ابتدعوه، وإذا سألتهم عن معناه قالوا: هذا لا يُعرف بالعقول فيبتدعون كلاماً يعرفون بأنهم لا يعقلونه، وهو كلام متناقض ينقض أولهُ آخَره، ولهذا لا تجدهم يتفقون على قول واحد في معبودهم حتى قال بعض الناس: لو اجتمع عشرة نصارى، افترقوا على أحـــد عشـــر قولاً .. ولو سألت قساً من قساوستهم عن مذهبهم في المسيح،

---

(١) الملل والنحل-الشهرستاني-١/٢٢٠.

(٢) سنن الترمذي-كتاب الإيمان-مَا جَاءَ فِي افْتِرَاقِ هَذِهِ الْأُمَّةِ-رقم الحديث(٢٥٦٤) وقال الترمذي: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.وانظر:

١. مسند الإمام أحمد-٢/٣٣٢.

٢. سنن أبي داود-كتاب السنة-بَاب شَرْحِ السُّنَّةِ-رقم الحديث(٣٩٨٠).

(٣) انظر: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام-القرطبي-مكتبة الحرمين-الرياض.

المسيحية-أحمد شلبي-النهضة المصرية-القاهرة-الطبعة الثامنة-١٩٨٤.

اليهودية والمسيحية-محمد ضياء الرحمن الأعظمي-٤٣٥.

وسألت أباه وأمه لا اختلفوا عليك الثلاثة، ولقال كل واحد منهم قولاً لا يشبه قول الآخر.. وإذا طولبوا بتفسير قول من أقوالهم فسره كل منهم بتفسير يكفر به الآخر..لاختلافهم في التوحيد[١].

فإذا كان بين أنفسهم هذا الاختلاف، فمن باب أولى أن يكون بينهم وبين المسلمين، فهم أمة الضلال وعباد الصليب الذين سبوا الله الخالق مسبة ما سبه إياها أحد من البشر، ولم يقروا بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

فكيف ينادي أعضاء الجمعيات بأنه لا خلاف بين الإسلام والنصرانية إلا خلاف ثانوي، مع أن أصل عقيدة النصرانية أن الله ثالث ثلاثة، وأن مريم صاحبته وأن المسيح ابنه[٢] الخ من الانحرافات العقائدية التي اتفقت عليها طوائف النصارى.

ومن الآيات التي ذكرت عقائد النصارى، قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓۚ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح-ابن تيمية-١٦٦/٢-١٦٧.

(٢) هداية الحيارى في الرد على اليهود والنصارى-ابن القيم-١٩-دار مكتبة الحياة-بيروت-لبنان.وانظر:

الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح-ابن تيمية-١٢/٢.

لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[4].

ومما يكنه النصارى للمسلمين ما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾[5].

---

(١) سورة النساء-رقم الآية (١٧١).

(٢) سورة المائدة-رقم الآية (٧٣).

(٣) سورة المائدة- رقم الآيات (١١٦-١١٧).

(٤) سورة التوبة-رقم الآية (٣٠).

(٥) سورة البقرة-رقم الآية (١٢٠).

إن الله عـــز وجل يخبرنا في هذه الآية على جهة التأكيد والدوام أن اليهود والنصـــارى لن يصطلحوا معنا، ولن يسالمونا أو يرضوا عنا، حتى نتبع باطلهم، ونحذو حذوهم في شركهم وكفرهم وانحلالهم[١].

ولـــيس خافـــياً على أحد ما آلت إليه أمور المسلمين في كثير من البلدان العربـــية، حـــاك النصارى الصليبيون مؤامرة القومية العربية فأزاحوا بها الخلافة الإســـلامية، وابتدعوا أحزاباً قومية فمسخت تعاليم الإسلام من العقول تارة بما تدعيه من علمية، وأخرى بما تثيره من شبهات حول الإسلام، وإذا وقف شيء مـــن الحق في وجهها لجأت إلى الحديد والنار حتى إذا آلت أجيال المسلمين إلى فوضى وضياع في المفاهيم والتصورات، قدموا لهم النموذج الغربي النصراني في المأكل والملبس والسلوك، وعلق بعض أبناء المسلمين سلاسل الصليب الذهبية في أعـــناقهم، ولم يعـــد يحـــتاج النصارى من الكافرين أن يسمعوا أبناء المسلمين ليقولوها الآن بأفواههم لكنهم سيطالبون بها في المستقبل القريب. ويأبون إلا أن نتبع ملتهم ونتبع أهواءهم.

الأمر الثاني: جاء بيان في كتاب الله وسنة نبيه بأن لله من الناس أولياء، وأن للشيطان من الناس أولياء، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[٢] وقال: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ

---

(١) الموالاة والمعادة في الشريعة الإسلامية-محماس بن عبدالله الجلعود-١/٧٦.

(٢) سورة يونس-رقم الآية (٦٢).

ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [١] وقال تبارك اسمه: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [٢].

ومن الآيات التي ورد فيها ذكر لأولياء الشيطان، قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [٣]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾ [٤] وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾ [٥].

فلما كان لله أولياء وللشيطان أولياء فقد كان لزاماً أن يوالي المسلم أولياء الله، ويعادي أولياء الشيطان، كما أمر الله بذلك في قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [٦].

---

(١) سورة البقرة-رقم الآية (٢٥٧).

(٢) سورة المائدة-رقم الآية (٥٥).

(٣) النحل-رقم الآية (٩٨-١٠٠).

(٤) سورة النساء-رقم الآية (١١٩).

(٥) سورة الأنعام-رقم الآية (١٢١).

(٦) سورة المائدة-رقم الآية (٥١).

وبتحقيق الولاء والبراء يستكمل المسلم إيمانه، لقول رَسُولُ اللَّه ﷺ : (**مَنْ أَعْطَى لِلَّهِ تَعَالَى وَمَنَعَ لِلَّهِ وَأَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَنْكَحَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ**)[١].

إن الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، وموالاة المؤمنين والبراءة من المشركين هو سبيل الأنبياء والمرسلين، فقد قال تعالى عن إبراهيم :﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾[٢]. وقال تعالى عن هود: ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾[٣].

وقد أخبر الله تعالى عن طلب نبيه نوح ﷺ بنجاة ابنه من الغرق ورد الله تعالى عليه، بقوله جل جلاله: ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[٤].

---

(١) مسند الإمام أحمد-٤٣٨/٣ .انظر: سنن أبي داود-كتاب السنة-باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه-رقم الحديث(٤٠٦١). وقال الخطابي: في إسناده القاسم بن عبدالرحمن، أبو عبدالرحمن الشامي. وقد تكلم فيه غير واحد.(معالم السنن-الخطابي-٥١/٧). وقال الحاكم :صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه-المستدرك- ١٦٤/٢.

(٢) سورة الممتحنة-رقم الآية (٤).

(٣) سورة هود-رقم الآية (٥٤-٥٥).

(٤) سورة هود-رقم الآية(٤٦).

فنبي الله نوح ﷺ الذي مكث في قومه يدعو لربه ألف سنة إلا خمسين عاماً، كان الحكم الإلهي القاطع معه في مسألة الولاء والبراء ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ وذلك حينما سأل الله ما ليس له به علم، لأن الوشيجة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين، وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم.

إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب، وليست وشيجة الأرض والوطن، وليست وشيجة القوم والعشيرة، وليست وشيجة اللون واللغة، وليست وشيجة الجنس والعنصر..إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد، كما قال تعال لعبده نوح ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾.

وهذا هو المعلم الواضح البارز على مفترق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة..إن الجاهليات تجعل الرابطة آناً هي الدم والنسب، وآناً هي الأرض والوطن، وآناً هي القوم والعشيرة، وآناً اللغة وآناً المصالح المشتركة أو التاريخ المشترك.. وكلها تصورات جاهلية ـــ على تفرقها أو تجمعها ـــ تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي [1].

---

(١) في ظلال القرآن-سيد قطب-١٨٨٦/٤.

وعَـــنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: **(قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ)**[1].

الأمر الثالث: من مبررات أعضاء جمعيات القومية، لاعتناق الولاء الجاهلي قولهم: إقصاء هيمنة الدين واعتباره كما قالوا: (ممارسة وجدانية). بهذا التصور عـــن قيمة الدين في واقع الحياة عند جمعيات القومية العربية، تعطلت أساسيات العقـــيدة وأحكام الشريعة. فقد أرادت الجمعيات القومية، أن يعتقد المسلم في ديـــنه ما يعتقد الكفار في فهم دينهم. (أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، هذا الشـــعار الذي ترفعه أوربا كلما أملى عليها الهوى أن تخالف منهج الله وتتمرد عـــلى شرعه، وبفضل هذا الشعار أخذ الدين ينكمش وينحسر على مر القرون حتى لم يبق له في أحسن الأحوال إلا ساعة في الأسبوع خاوية من كل معنى[2].

والذي يدل عليه كلام الله وكلام رسوله أن الدين ليس فقط في القلوب والوجدان، وإنما هو ممارسات قلبية وعملية ولفظية، قال تعالى : ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى

---

(١) سـنن الـترمذي-كـتاب المناقب-بَاب فِي فَضْلِ الشَّامِ وَالْيَمَنِ-رقم الحديث(٣٩٥٦). وقال الترمذي: هَذَا حَدِيث حَسَنٌ. وانظر: سنن أبي داود-كتاب الأدب-باب التفاخر بالأحساب-رقم الحديث(٤٤٥٢).

(٢) العلمانية-سفر الحوالي-٦٥.

ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾[1].

في آية واحدة يضع القرآن الكريم قواعد التصور الإيماني الصحيح، وقواعد السلوك الإيماني الصحيح، ويحدد صفة الصادقين المتقين..آية واحدة تجمع بين أصول الاعتقاد، وتكاليف النفس والمال، وتجعلها كلاً لا يتجزأ، ووحدة لا تنفصم. وتضع على هذا كله عنواناً واحداً هو (البر) .. والحق أنها خلاصة كاملة للتصور الإسلامي ولمبادئ المنهج الإسلامي المتكامل لا يستقيم بدونها إسلام[2].

وإقامة الدين في جميع مناحي الحياة، وأن يكون حاكماً في جميع شؤون الناس، هو شرع الله الذي شرعه لجميع الملل،كما قال: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[3].

فمعنى الآية شرع لكم ولمن قبلكم إقامة الدين وترك الفرقة، وشرع الاجتماع على اتباع الرسل[4]. دون التفات إلى أهواء المختلفين. ومن هيمنة

---

(١) سورة البقرة-رقم الآية(١٧٧).

(٢) في ظلال القرآن-سيد قطب-١/١٦١.

(٣) سورة الشورى-رقم الآية(١٣).

(٤) زاد المسير-ابن الجوزي-٧/٢٧٧.

هـــذا الدين الواضح المستقيم، ودحض حجة الذين يحاجون في الله، وإنذارهم بالغضب والعذاب الشديد[١].

وبهذا المفهوم الشرعي كان إقامة الدين في واقع الناس من أسباب اجتماع الكلمة لقول الرسول ﷺ (..**إِنَّ هَذَا الأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ لا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ إِلا كَبَّهُ اللَّـــهُ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ مَا أَقَامُوا الدِّينَ**)[٢]. فقوله ﷺ : **(مَا أَقَامُوا الدِّين)** أي: مدة إقامتهم أمور الدين، وإذا لم يقيموا الدين خرج الأمر عليهم[٣].

فمما سبق يتبين بطلان ما قررته جمعيات القومية العربية، في واقع الأمة من تهميش قضية الدين، وعدم اعتباره الأساس والمرجع والمآل.

الأمر الرابع: الاجتماع على الأسس الدينية هو العاصم من الضلال، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[٤]. لقد كان العرب قبل جمعهم على دين الله أمة متفرقة كما قال تعالى ـــ تمام الآية السابقة ـــ ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ .

ومعـــنى الآية: اذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم التي أنعم بها عليكم حـــين كنتم أعداءً بشرككم، يقتل بعضكم بعضاً، عصبية في غير طاعة الله ولا

---

(١) في ظلال القرآن-سيد قطب-٣١٤٧/٥.

(٢) صحيح البخاري-كتاب الأحكام-بَاب الْأُمَرَاءُ مِنْ قُرَيْشٍ-رقم الحديث(٦٦٠٦).

(٣) فتح الباري-ابن حجر-١٢٥/١٣.

(٤) سورة آل عمران-رقم الآية (١٠٣).

طاعـــة رسوله، فألف الله بالإسلام بين قلوبكم، فجعل بعضكم لبعض إخواناً، بعد إذ كنتم أعداء تتواصلون بإلفة الإسلام واجتماع كلمتكم عليه[١].

وبما زعمته جمعيات القومية العربية ـــ حينما استبعدت الدين الذي يكون الولاء والبراء من أجله ـــ قد خالفت نص هذه الآية الكريمة، فبالتمسك بوحي الله العزيـــز تحصـــل الوحدة الصحيحة، بها يكون التجمع الصحيح، والشعور الصحيح عن محبة ومواساة، وهو تجمع على التصور الديني لجميع مناهج الحياة، لا تجمـــع على شيء سواه من التصورات الجاهلية، فإنه لا يمكن أن تتحقق منها الوحـــدة الكاملة المنشودة إنما هي خلافات جذرية عقائدية تزيد في أحقادهم، وعداوة بعضهم لبعض، بخلاف الأخوة الدينية فإنها راسخة في القلوب.

وليس من الولاء الشرعي الدعوة إلى الوحدة، أو الاتحاد باسم حبل الله أو سماحـــة الدين ـــ كما يدعيه أعضاء الجمعيات ـــ مع من نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، فإن هذا غش للمسلمين إذ لا يجوز اتحادهم إلا مع المعتصم بحبل الله. ولـــيُعلَم عـــلم اليقين أنه لا يحصل على وحدة أو اتحاد بهذه المبادئ والمذاهب القومية والمادية، ولا يحصل على الوحدة المبنية على المودة والحنان، إلا بانتهاج الإسلام الصحيح[٢].

لقـــد ذكرت الآية السابقة نعمة الله على العرب بعد أن جمعتهم بعد تفرق وألف بين قلوبهم بعد عداوات، وكله من آثار الولاء الشرعي.

---

(١) تفسير الطبري-٤/٣٣.

(٢) صفوة الآثار والمفاهيم-عبدالرحمن الدوسري-٤/٢٦٢-٢٦٥(بتصرف).

وأمـــا عن مكاسب الجمعيات ـــ من الولاء الجاهلي ـــ فلا نجد إلا ضياع مملكـــة واسعة الأرجاء، والابتلاء بالاستعمار العسكري، ثم الاستعمار الفكري الذي مزقهم شر ممزق[١].

وقـــبل ضياعِ الملك والاستعمار العسكري، ظهر كثير من الخلافات بين أعضـــاء الجمعـــيات حين تأسيسها، مثال ذلك ما يذكره أعضاء جمعية بيروت الإصـــلاحية، فـــبعد أن وضعت الجمعية الإصلاحية لائحة نظامها، التي منها: وجوب انتخاب أعضاء المجلس العمومي مناصفة بين المسلمين وغير المسلمين[٢]، إلا أن أعضـــاء الجمعية من غير المسلمين طلبوا أن يكون النصيب الأعظم لهم، وأصـــروا على أن يكون لأعضائهم أكثر من النصف. فيقول سليم علي سلام ـــ أحـــد المؤسسين للجمعية ـــ : وحباً بعدم عقد الاتفاق ارتأينا أن لا نتداخل بالانتخاب[٣].

ولهذا تقدم بالشكر القائدُ العام للحملة المصرية "المارشال اللنبي" للجمعيات القومـــية العربـــية ـــ الـــتي تقرر مبدأ الولاء الجاهلي ـــ على ما قدمته لجيوش التحالف بقوله: (إن المساعدات التي قدمها لنا العرب لا تثمن).

---

(١) المصدر السابق-٤/٢٦٥.

(٢) قـــال رشيد رضا عن هذا الاتفاق: إنني أشكر لإخواني أهل بيروت هذا العمل الإصلاحي الذي أقـــيم على أساس الاتفاق بين مسلميهم ونصاراهم، وإن بذل الأولون في استمالة الآخرين ما لم يبذلـــه غيرهم من الناس وهو أنهم رضوا أن تكون قلة النصارى في الولاية مساوية لكثرة المسلمين في الاشـــتراك بـــإدارة حكومتهم، فهذا برهان عملي قاطع على تساهل من يعدون أشد المسلمين عصبية في سورية.. ونعد لهؤلاء المسلمين من المزية سماحهم ببعض حقوقهم لأبناء وطنهم ونشكر للجمـــيع الوحدة الوطنية والاتفاق . انظر: مجلة المنار-المجلد ١٦-الجزء ٤-ص:٢٨٠-سنة١٣٣١ هـــ.

(٣) مذكرات سليم علي سلام-قدم لها وحققها/حسان على حلاق-١٦٤-١٤٠١هـــ

وبعد الحرب العالمية الأولى سلّم أمين سر رئاسة وزارة فرنسا، للأمير فيصل وسام الصليب الحربي، وشارة سعف النخل، مع كتاب هذا نصه: إنه أمير يشار إليه بالبنان، مملوء حمية ونخوة، أيد بعزم وطيد قضية أبيه ملك الحجاز سنة ١٩١٦، لخلع النير التركي وتأييد قضية الحلفاء...الخ[١].

والأمير فيصل بن الحسين هو من أهل ودعاة الولاء الجاهلي، حيث يقول: (الدين لله والوطن للجميع، نحن عرب قبل موسى وعيسى ومحمد، إن محمداً لعربي قبل أن يكون مسلماً)[٢].

ويذكر أعضاء جمعيات القومية المآسي التي حلت بالأمة بسبب هذا الولاء الجاهلي، يقول ساطع الحصري وهو من أبرز منظري فكر جمعيات القومية العربية: "خرج فيصل من حدود المملكة التي كان يحكمها ما يقارب من سنتين وتلقت الحركة القومية التي ثار العرب من أجلها ضد الترك ضربة قومية، وزالت بذلك الدولة العربية في دمشق إثر حملة عسكرية شنت عليها بعد سلسلة طويلة من المناورات السياسية كانت ميسلون حداً فاصلاً، وتبعثر على إثرها رجال الثورة العربية ودعاة القومية في مختلف الأقطار ليجابهوا حياة كفاح جديدة شاقة ومتشعبة[٣].

---

(١) أسرار الثورة العربية لكبرى-أمين سعيد-٢٩١-٢٩٣.

(٢) الشعر والوطنية في لبنان والبلاد العربية-وليم الخازن-٨٠.وانظر:الاتجاه القومي-عمر دقاق-٣٥٢.

(٣) ميسلون-ساطع الحصري-١٨. وانظر: يقظة العرب-جورج انطونيوس-٢٧٤و٤٥٦.

ويصف خير الدين الزركلي[١] ــ أحد أعضاء جمعيات القومية العربية ــ مــا شاهده من أحداث في تلك الفترة، فيقول: (بعد إعلان ملكية الأمير فيصل الأول: بعد البيعة بعشرة أيام أبلغت فرنسا وإنجلترا الأمير فيصل بأنهما لا تعترفان بصــحة بيعته ملكاً، ودعي للحضور إلى أوربا لعرض قضيته أمام مجلس عالٍ، فاعتذر بأن أعمال مملكته الجديدة لا تسمح له بمغادرة البلاد، ثم وقعت حوادث شــغب واعتداء بين الطوائف في الشام، وتكونت عصابات.. وكانت الحكومة العربية في أيدي العامة والهازلين من أمراء جيشها، وخطط الأحزاب متضاربة، وأعضاء كل حزب متعادون متشاكسون بينهم)[٢].

وفي نهايــة الحــرب واحــتلال البلاد العربية، علق (لورانس) على هذه الأحــداث قائلاً: إن العرب قد ثاروا ضد الترك لا لأن الحكومة التركية فاسدة فســاداً خاصاً بل لأنهم يريدون الاستقلال.. ولم يغامروا بحياتهم في المعركة حباً بتغــيير الأسياد كي يصبحوا رعايا بريطانيين أو مواطنين فرنسيين، بل ليكتسبوا المظهر الخاص بهم[٣].

الأمر الخامس: لقد أحل الله طعام الذين أوتوا الكتاب وهو نص الكتاب المنزل، وقد أجمع العلماء على حل ذبائحهم[٤]. وهذا الشرع الحكيم ليس ولاءً

---

(١) انظر الترجمة رقم (٢٢).

(٢) ما رأيت وما سمعت-خير الدين الزركلي-٣٢-٣٣-مكتبة المعارف-الطائف.

(٣) مجلــة المقــتطف-الجــزء ١-المجلد٧٩-في تاريخ ١٩٣٣-بعنوان:لورانس في الميزان-عبدالرحمن الشهبندر.

(٤) الإجماع-ابن المنذر-كتاب الضحايا والذبائح-رقم فقرة الإجماع (٢٢٢)-دار طيبة-١٤٠٢هـ.

لهـــم كمـــا يقول أعضاء جمعيات القومية العربية، ولا محبة لمعتقدهم ومذهبهم، وإنما العلة في ذلك لوجود التذكية في ذبائحهم[١]، ولأنهم يتوقون القاذورات[٢].

ولهذا قال السلف عن فهم هذه الآية: لا بأس بذبيحة أهل الكتاب إذا أهلوا لله وسموا عليها، قال تعالى:﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ [٣]. والمسلم في قلبه اسم الله، وما أهل لغير الله به مما ذبحوا لكنائسهم وأعيادهم يجتنب ذلك[٤].

استنبطت جمعيات القومية العربية من حكم جواز أكل ذبائح أهل الكتاب دلالات فاســـدة بـــنوا عليها مبدأً من مبادئهم، واتخذوه في مناهج دعوتهم إلى القومية العربية ضد الدين، قالوا: "وذلك لإزالة الجفوة وتوطيد التآنس والتواثق والتعامل والتقارب عملياً بين المسلمين والنصارى، يخالف النصوص الأخرى التي تنص على وجوب بغضهم ومخالفتهم الذي هو أصل التعامل مع أهل الكتاب".

لقد أهمل أعضاء جمعيات القومية العربية النصوص الأخرى الواردة في الكتاب والسنة التي تدعو إلى مخالفة أهل الكتاب، ومنها قوله تعالى: ﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [٥]. وقوله

---

(١) الجامع لأحكام القرآن-القرطبي-٦/٧٧.

(٢) أحكام القرآن-ابن العربي المالكي-٢/٥٥٢-دار المعرفة-بيروت-لبنان.

(٣) سورة الأنعام-رقم الآية(١٢١).

(٤) أحكام أهل الذمة-ابن القيم-١/٢٤٥.

(٥) سورة المائدة-رقم الآية (٥١).

تعالى شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾[1].وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ﴾[3].

هـــذا بعض ما ورد في كتاب الله في وجوب مخالفة ومعاداة أهل الكتاب، وأمـــا ما ورد في السنة من النهي عن التشبه بأهل الكتاب، فقد أخبر به محذراً فقـــال ﷺ: (**لَتَتَّـــبِعُنَّ سَـــنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَـــلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ،** قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: **فَمَنْ**)[4].

وكان النبي ﷺ طوال دعوته يذكّر الأمة بألا تنهج نهج أهل الكتاب مع أنبيائهم، كما روي عن أبي وَاقد اللَّيْثِيِّ قوله: حينما خرج الصحابة عَنْ مَكَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ، وَكَانَ لِلْكُفَّارِ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيُعَلِّقُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، قَالَ: فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ خَضْرَاءَ عَظِيمَةٍ، قَالَ: فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (**قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى:** ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ

---

(١) سورة الممتحنة-رقم الآية (١).

(٢) سورة آل عمران-رقم الآية(١٠٠).

(٣) سورة المائدة-رقم الآية(٥٧).

(٤) صحيح البخاري-كتاب-بَاب مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ-رقم الحديث(٣١٩٧).

ءَالِهَةً قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[١] **إِنَّهَا السُّنَنُ لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ سُنَّةً سُنَّةً**)[٢].

ولما حرف أهل الكتاب كتابَهم قال تعالى في حقهم: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[٣].

وقد حذر النبي ﷺ أمته من الاختلاف في كتاب الله، فحينما سَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ، فَخَرَجَ عَلَيْهِم رَسُولُ اللَّه ﷺ يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ فَقَالَ: (**إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلافِهِمْ فِي الْكِتَابِ**)[٤].

ولما كان السلام يدل على المودة والولاء كما قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: (**لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؛ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ**)[٥].

لما يحمله هذا الأدب الإسلامي (السلام) من المعاني فإن الشريعة تحقيقاً لمبدأ الولاء والبراء نهت أن يبدأ المسلم أهل الكتاب بالسلام بدليل قول رَسُول اللَّه ﷺ: (**لا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَلا النَّصَارَى بِالسَّلامِ فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ**)[٦].

---

(١) سورة الأعراف – رقم الآية (١٣٨).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل-٥/٢١٨.

(٣) سورة البقرة-رقم الآية(٧٩).

(٤) صحيح مسلم-كتاب-بَاب النَّهْيِ عَنِ اتِّبَاعِ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ-رقم الحديث(٤٨١٨).

(٥) صحيح مسلم-كتاب الإيمان-بَاب بَيَانِ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ-رقم الحديث(٨١).

(٦) المصدر السابق-كتاب السلام-باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام/رقم الحديث(٤٠٣٠).

ويستمر نبينا محذراً أمته من مشابهة أهل الكتاب وهو على فراش الموت، قالت عائشة: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً عَلَى وَجْهِهِ فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: (**لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا**)[١].

فهذه بعض النصوص الواردة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله التي تحدد علاقة المسلمين بأهل الكتاب على أساس الولاء والبراء، وهي تنقض ما قررته جمعيات القومية العربية من مبادئ الولاء الجاهلي.

الأمر السادس: إن موالاة اليهود والنصارى وإشراكهم في تقرير مصير الأمة، كما حصل في الثورة العربية، التي قال عنها أعضاء الجمعيات: "إن الثورة العربية قد أشغلت نحو أربعين ألف جندي تركي بين المدينة وعمان، وأنها كانت عاملا كبيراً في اندحار تركية وانتصار الحلفاء عليها)[٢]. كل هذا فيه مخالفة لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾[٣].

نهى الله في هذه الآية المؤمنين به أن يتخذوا من الكفار به إخلاءً وأصفياءً، ثم عرفهم ما هم عليه لهم منطوون من الغش والخيانة، وبغيهم إياهم من الغوائل، فحذرهم بذلك منهم عن مخالّتهم[٤].

---

(١) صحيح البخاري-كتاب-بَاب مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ-رقم الحديث(٣١٩٥).
(٢) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها - مصطفى الشهابي - ١٢٠.
(٣) سورة آل عمران-رقم الآية (١١٨).
(٤) تفسير الطبري-٤/٦٠.

إن هـذه الآيـة وغيرها من الآيات التي تنهى عن موالاة الكفار، واتخاذ الغريـب عـن الملة بطانة لمن يقوم بأمر الملة، وإن كانت له صلة النسب، فإن مخالفـته في الدين تجعله غريباً، والغريب عن الدولة لا يجوز اتخاذه بطانة لرجال الدولـة... فهـم يقذفون الغش والتلبيس، كما جرى للمستعصم آخر خلفاء العباسيين، حين استوزر ابن العلقمي الرافضي، ركيزة التتار، حتى خدعه، وصار فريسة لهم فكانت نكبة على المسلمين[١].

و لم يرض النبي ﷺ أثناء تبليغ رسالته أن يدعو أحدٌ من المسلمين ينتمي إلى عصـبية جاهلـية، فحينما قال الصحابة من المهاجرين والأنصار الذكر:(قَالَ الأَنْصَـارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ) قال: النَّبِيُّ ﷺ: (**مَا بَـالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ .. دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ**)[٢]. فإذا كان من دعا إلي لـلمهاجرين واستنصر بهم على إخوانهم في الدين، أو إلى الأنصار واستنصر بهم على إخوانهم في الدين يكون قد دعا بدعوى الجاهلية، مع كونهما اسمين محبوبين لله سبحانه، وقد أثنى الله عليهم ثناءً عظيماً. فكيف تكون حال من انتسب إلى القومـية واستنصر بها وغضب لها؟ أفلا يكون أولى بأن يكون قد دعا بدعوى الجاهلية[٣].

---

(١) صـفوة الآثـار والمفاهيم-عبدالرحمن الدوسري-٢٩٧/٤. وقال أهل التاريخ عن خيانة الوزير الرافضـي الوزير بن العلقمي للأمة: كان حريصاً على إزالة الدولة العباسية، ونقلها إلى العلوية، والرسل في السر بينه وبين التتار. وانظر عن سقوط بغداد وسعي بن العلقمي: البداية والنهاية-ابن كثير-٢١٣/١٣. تاريخ الخلفاء-السيوطي-٥٣٢-٥٤٢.

(٢) صحيح البخاري-كتاب المناقب-باب ما ينهى من دعوى الجاهلية-رقم الحديث(٣٢٥٧).

(٣) مجموع فتاوى الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز-٢٩٥/١-٢٩٦.

المبحث الثالث

موقف الجمعيات من نبوة الرسول ﷺ وسيرته

اعتنى سلف الأمة بسيرة الرسول ﷺ، فقاموا بتدوينها والتصنيف في سننه وأيامه وغزواته بياناً للناس لأنها سيرة النبي ﷺ والرسول المصطفى ﷺ، المقتدى به فذكروا تفصيلاً أحوالَه وقصصَه وأخبارَه، وشؤونَ حياتِه.

وهـــذا ناجم عن عمق فهم السلف لمدلول كلمة (شهادة أن محمداً رسول الله)، قـــال ابنُ بطة: "إن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه قد جعل في كل زمان فترة من الرسل ودروساً للأثر، لطفاً بعباده ورفقة بأهل عنايته، ومن سبقت له الرحمة في كتابه، لا يخلو زمان من بقايا من أهل العلم وحملة الحجة، يدعون من ضـــل إلى الهـــدى ويذودونهم عن الردى، يصبرون منهم على الأذى ويُحيون بكتاب الله الموتى ويبصّرون بعون الله أهلَ العمى، وبسنة رسول الله أهلَ الجهالة والغبا"[1].

---

(١) الإبانـــة عـــن شـــريعة الفـــرق الناجية-ابن بطة-١/١٩٧-دار الراية-الرياض-الطبعة الأولى-١٤٠٩هـ.

وروى أهـــل الحديـــث حرص السلف من الصحابة والتابعين على معرفة ونشـــر ســـنة النبي ﷺ ممتثلين قوله: (**أَلاَ لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلَّغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ**)[١].

فمما رووا في هذا الباب ما حدّث به عمر بن الخطاب عن نفسه أنه قال: (كُنْـــتُ أَنَـــا وَجَـــارٌ لِي مِنَ الأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْد ـــ وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِيـــنَةِ ـــ وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ، يَنْزِلُ يَوْمًا، وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِك)[٢].

وقد نقل السلف السيرة النبوية، التي شملت جميع جوانب حياته ﷺ، بدقة وأمانـــة قـــيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه: (قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ. فَقَالَ: أَجَلْ، لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْـــيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْـــتَنْجِيَ بِـــأَقَلَّ مِنْ ثَلاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ)[٣].

ومن أدق ما روى الصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ، عدد الشعرات البيضاء في وجهـــه، فقـــد حـــدّث وَهْب أَبِي جُحَيْفَةَ السُّوَائِيِّ، قَالَ: "رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَرَأَيْتُ بَيَاضًا مِنْ تَحْتِ شَفَتِهِ السُّفْلَى، الْعَنْفَقَةَ"[٤].

---

(١) صحيح البخاري-كتاب المغازي-بَاب حَجَّةِ الْوَدَاعِ-رقم الحديث (٤٠٥٤).

(٢) المصدر السابق-كتاب العلم-بَاب التَّنَاوُبِ فِي الْعِلْمِ-رقم الحديث(٨٧).

(٣) صحيح مسلم-كتاب الطهارة-بَاب الاسْتِطَابَةِ-رقم الحديث (٣٨٥).

(٤) صحيح البخاري-كتاب-بَاب صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ-رقم الحديث(٣٢٨١).

فكان نهج السلف في بيان سيرة الرسول للناس من أجل الاقتداء به، ولزوم سنته، كما قال القاضي عياض في بيان مقصده من الكتابة في سيرة الرسول ﷺ: "هو التعريف بقدره الجسيم، وخُلقِه العظيم، وبيان خصائصه التي لم تجتمع قبل في مخلوق، وما يدان للهِ تعالى به من حقه الذي هو أرفع الحقوق، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب، ويزداد الذين آمنوا إيماناً، ولما أخذ الله تعالى على الذين أوتوا الكتاب ليُبَيِّنُنّه للناس ولا يكتمونه"[١].

وإن كتابة السيرة النبوية ودراستها لغرض الاهتداء والاقتداء بها، وهو ما نهجه علماء السلف المتأخرين أيضاً، وكل مسلم اليوم بأشد الحاجة لدراسة وفهم سيرته ﷺ، ليخرج بها من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن ألغي إلى الرشد، ومن السفه إلى الحكمة[٢].

ومما يجب الإشارة إليه في بداية هذا المبحث، أن القضية ليست مسألةُ إنكار أعضاء الجمعيات القومية للآيات الكونية، أو الجزئيات المتعلقة بصفاته ﷺ، وإنما القضية بحث مواقف أولئك الأعضاء الذين تشربت معتقداتهم بالمبادئ الباطلة والمذاهب المنحرفة، كعدم إيمانهم ببعثة المصطفى وعدم اعتقادهم بأن الله قد أنزل القرآن على عبده ورسوله محمد ﷺ، ولا يرون أن الله جلّت قدرته قد خص نبيه بشيء من المعجزات وخوارق العادات.

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى-القاضي عياض-٦/١.

(٢) مختصر سيرة الرسول-عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب-٧-مكتبة الرياض الحديثة-الرياض.

لذلك لا غرابة في وصف عفلق البعثي النصراني النبيَّ، بقوله: "الأديب كالنبي، لابد أن يضطهد من أجل رسالته، ولا فرق بينهما يميز الأديب على النبي وهو أن هذا يحمل في جديده بذور الموت، إذ أنه يجيء بجديد يفرضه على المستقبل ويحرم عليه التجديد، في حين أن جوهر الأدب حرية لا نهاية لها"[١].

وقد أشار إلى هذا الأمر شيخ الإسلام في عصره مصطفى صبري مبيناً التدرج في هذه المسألة من الجرح في ثقات الرواة، حتى إنكار المسلمات من الأمور الغيبية[٢].

وقد اتخذ أعضاء الجمعيات مواقفَ من سيرة النبي ﷺ وما ظهر من دلائل نبوته ﷺ، تتوافق مع المنهج الذي سمي بالمنهج العقلي، الذي ظهر في بدايات القرن التاسع عشر الهجري، وهو ما يسمى "بالعلم التجريبي" أي ـ المادي ـ.

وصف أعضاء الجمعيات هذا المنهج بأنه من مميزات القرن التاسع عشر، وجعلوه بمثابة الروح العلمية التي عمت دوائر الحياة البشرية جميعاً، اتَّخذت العلومُ والمعارف فيه وجهةً يصح أن تسمى جديدة، ووضُعت على أساس راسخ بفضل البحث العلمي المبني على الملاحظة والتجربة بخلاف ما كانت عليه قبلاً من الاعتماد على آثار السلف والاكتفاء بما تركوه من العقائد والآراء.

فلما بزغ فجر العصر الحديث قال أعضاء الجمعيات: تحررت الشعوب من القيود القديمة على اختلافها، تخللت تلك الروح جميع العلوم والمعارف فترك

---

(١) ميشيل عفلق (الكتابات الأولى)-ذوقان قرقوط-٧٦.

(٢) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين-مصطفى صبري-١/١٩-٢٣.

المفكـــرون سلطة الأقدمين جانباً لأن الخضوع الأعمى لها كان حجرَ عثرةٍ في ســـبيل التقدم المادي والأدبي وانتهجوا طريقاً جديداً كان رائدهم فيه الوقوف على الحقيقة المجردة عن كل غرض[١].

فقـــدّم أعضاء الجمعيات القومية في مجلاتها ـــ انطلاقاً مما تقدم ذكره وبعد تحللهم من الدين ـــ دراساتٍ عن سيرة الرسول ﷺ منطلقة من منهج (النهضة العلمـــية) ومـــن أهم مقاصدها كما قالوا: "إعادة الحياة إلى الأفراد وبث روح الاستقلال فيهم وانتشالهم من عبودية الجماعات التي كانوا رازحين تحت أثقالها والســـعي للإفـــراج عن أرواحهم المثقلة بالعقائد الدينية"[٢]. وبسبب من ذلك تـــناولوا الســـيرة النبوية وما وقع على يدي الرسول من آيات سالكين المنهجَ العقليَّ المجردَّ عن القبول والانقياد.

ويمكن ـــ بعد دراسة مجموعة ما كتبه أعضاء الجمعيات القومية العربية، في السيرة النبوية ـــ أن أقسم منهجية كتاباتهم في سيرة الرسول إلى قسمين:

القسم الأول: كتابة الأعضاء ذوي الاعتقادات الباطلة، والمذاهب الفاسدة من نصارى وغيرهم، فقد كتبوا في السيرة النبوية وألقوا المحاضرات عنها تسيء إلى مقام النبوة، وبعيدة في مقاصدها عن الهدي والاتباع.

ذكـــر رشـــيد رضـــا بـــأن شبلي شميل، ـــ وهو نصراني من مؤسسي الجمعـــيـــات ـــ كتـــب إليه كتاباً قال فيه:"أنت تنظر إلى محمد كنبي فتجعله

---

(١) مجلة الهلال-مجلد (٢٥)سنة -ص:٢٣٣.

(٢) المصدر السابق-ص:٣٢٠.

عظيماً، وأنا أنظر إليه كرجل وأجعله أعظم، ونحن وإن كنا في الاعتقاد (الدين أو المبدأ الديني) على طرفي نقيض فالجامع بيننا العقل الواسع والإخلاص في القول، وذلك أوثق بيننا لعرى المودة"[١].

وقال شيخ الإسلام في عصره؛ الشيخ مصطفى صبري عن شبلي شميل: "بأنه ناشر فكرة الإلحاد في البلاد العربية بحماسة وصراحة"[٢].

ومن أبرز هؤلاء الكتاب جرجي زيدان النصراني الذي استتر برداء العروبة، وتوارى خلف شعارات القومية، ومهد له الإعلام الغربي ليلعب دوره الطبيعي في كتابة التاريخ الإسلامي مشوّهاً مبتوراً[٣].

فمن أبرز كتب جرجي زيدان: كتاب (تاريخ التمدن الإسلامي)، وسلسلة من (الروايات التاريخية)، وأصبحت كتبه في هذا المجال منهلاً آسناً يستقي منها القوميون العرب[٤].

---

(١) مجلة المنار-المجلد (١٩)-الجزء(١٠)-بتاريخ ١٣٣٥/٦/٢٩هـ.ص:٦٢٧.

(٢) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين-مصطفى صبري-٩/٤.

(٣) نسبش الهذيان من تاريخ جرجي زيدان-أمين بن حسن الحلواني-تقديم محمد السيد الوكيل-من المقدمة٦.

(٤) انظر على سبيل المثال:

١. فلسفة تاريخ محمد ﷺ-محمد جميل بيهم.

٢. أضواء على السنة المحمدية-محمود أبو رية.

٣. محمد عبدالغني حسن -الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر سلسلة أعلام العرب-الجزء ٩٠.

وأصبح عدد ممن تولوا نشر المعتقدات والأفكار المنحرفة في المجتمعات الإسلامية من الأدباء والكتاب يرددون ادّعاءات جرجي زيدان على تراثنا وتاريخنا كطه حسين، وسلامة موسى، ولويس عوض، ولطفي السيد، ومحمود عزمي، وحسين فوزي...الخ[١].

القسم الثاني: كتابة أعضاء الجمعيات القومية الذين فُتنوا بمنهج المدرسة العقلية، وأرادوا أن يوفّقوا بين منهجية السلف في كتابتهم للسيرة النبوية، وبين منهج أعضاء الجمعيات من النصارى وغيرهم، وقد ضلوا سواء السبيل في محاولة التوفيق[٢].

إذ اتفق الفريقان من أعضاء الجمعيات القومية العربية على كتابة السيرة النبوية بالمنهج العقلاني والتزامه. ورأوا أن العقل وقواعد العلم الإنساني قد بلغا رشدهما مع بداية القرن التاسع عشر فلم تعد تحدي فيهما معجزة، ولا تنفع فيهما غريبة لأن الشكوك قد كثرت مع كثرة المواد العلمية[٣]، وقد صرح كلا الفريقين في كتاباتهم عن السيرة النبوية باتباع هذا المنهج.

قال فريد وجدي عن منهج كتاب السيرة وفق روايات الإسناد: إن الكثيرين ممن تناولوا منا السيرة المحمدية بالكتابة جعلوا معتمدهم الأساليب الخطابية والأفانين البيانية، ولم يعنوا أقل عناية بحاجة العقول القوية المجبولة على

---

(١) جرجي زيدان في الميزان-شوقي أبو خليل-٧-دار الفكر-دمشق-الطبعة الثالثة-١٤٠٣هـ.

(٢) انظر: دراسات في السيرة النبوية-محمد سرور-١٨١-دار الأرقم-الطبعة الأولى-١٤٠٧هـ.

(٣) المدنية والإسلام-محمد فريد وجدي-٧١-٧٢-المكتبة التجارية الكبرى-مصر- ١٣٥٣ هـ

التشـــكك والتثبـــت، فأسرفوا في إهمال الناحية الإقناعية، وتهافتوا على الناحية التسليمية.. وقد تناول التأليف في السيرة في العهد الأخير رجالٌ من أهل الثقافة الحديثة، فوفوا بحاجات في نفوس الناس[١].

وكتـــب فريد وجدي ذاته السيرة بنفس منهج المدرسة العقلية، قال: "إننا نحـــرص فـــيما نكتـــبه في هذه السيرة على مسايرة مذهب المبالغين في التثبت، والمحـــافظين على إقامة الدستور العلمي، ثقة منا بأن بحثاً لا تحترمه النخبة المثقفة ولا تجـــد فيه صورة صحيحة إلا في عرض المسائل وتحليلها، لا يمكن أن يؤدي إلى ما قصد منه من الخدمة العامة"[٢].

وقال محمد جميل بيهم: ـــ عند الحديث عن المعجزات ـــ : "إن فريقاً من الأعـــاجم كانوا يشتهون أن لا تبقى سيرة النبي مجردة عن الخوارق والمعجزات التي تحفل بها سير أنبيائهم في أدياهم السابقة، فراحوا ينسبون لمحمد معجزات لم يرد ذكرها في القرآن، ولم يشر إليها الحديث"[٣].

وعـــلى المنهج نفسه سار محمد حسين هيكل في كتابه (حياة محمد) قال: "إنني أجري في هذا البحث على الطريقة العلمية الحديثة وأكتبه بأسلوب العصر، وإنـــني أفعـــل ذلك لأنه الوسيلة الصالحة في نظر المعاصرين لكتابة التاريخ وغير التاريخ من العلوم والفنون.

---

(١) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة-٤٠.

(٢) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة-١٨٤.

(٣) فلسفة تاريخ محمد ﷺ-محمد جميل بيهم-٢٢٤.

ومـــا كان لي وذلك شأني، أن أتقيد بنهج الكتب القديمة وأساليبها، وبين هذين وبين النهج والأساليب في عصرنا الحاضر بون عظيم، أيسره أن النقد في الكتـــب القديمـــة لم يكن مباحاً بالقدر الذي يباح به اليوم، وأن كثرة الكتب القديمـــة كانت تكتب لغاية دينية تعبدية، على حين يتقيد كتاب العصر الحاضر بالنهج العلمي والنقد العلمي.

لكني رأيت من الخير أن أتبسط بعض الشيء في بيان الأسباب التي دعت المفكرين من أئمة المسلمين ـــ كما تدعو كل باحث مدقق ـــ إلى عدم الأخذ جزافاً بكل ما ورد في كتب السيرة وفي كتب الحديث وإلى التقيد بقواعد النقد العلمي"[1].

وما اكتفى أعضاء الجمعيات القومية العربية بالأخذ بالمنهج (العقلاني) في دراســـة السيرة، بل طعنوا في المنهج الذي كُتبت به سيرة الرسول ﷺ والتاريخ الإسلامي، وهو منهج الرواية والإسناد.

ونَقْد أعضاء الجمعيات القومية العربية ينحصر في مسألة الأسانيد واعتبارها حجة في الرواية، قال جرجي زيدان: إنما يعاب المؤرخون المسلمون لاقتصارهم في الـــتواريخ على إيراد الحوادث على عواهنها كما بلغت إليهم، وقد يسندونها

---

(١) حـــياة محمد-محمد حسين هيكل-٦٤-دار المعارف-القاهرة-الطبعة السادسة عشر. ومما ينبغي تسطيره أن رشيد رضا قال مؤيداً لكتاب هيكل: أهم ما ينكره الأزهريون والطرقيون على هيكل أو أكـــثره مسألة المعجزات أو خوارق العادات. وقد حررها في كتاب الوحي المحمدي..مما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد بالذات.مجلة المنار مجلد ٣٤-الجزء العاشر-في ٣ مايو ١٩٣٥.ص:٧٩٣. وذكر هيكل هذا التأييد في كتابه حياة محمد-٦٩.

إلى راوٍ أو عدة رواة بلا انتقاد ولا تمحيص ولا قياس اكتفاء بالإسناد، وقد فاتهم أن بعضَ الأخبار المسندة موضوعٌ في الصدر الأول أو ما بعده لأغراض سياسية.

ويندر أن ترى لمؤرخ منهم رأياً في حادثة أو انتقاداً.. وهذا هو السبب فيما نقاسيه من العناء في استخراج حقائق التمدن الإسلامي من كتب التاريخ[١].

وهذا الحكم خلاف الحقيقة، ويكفي في الرد على ما زعموه إشارةٌ موجزةٌ إلى منهج السلف في الرواية، الذين اعتبروا الأسانيد من الدين، فقاموا بنقد وتمحيص الروايات.

وأوضح السلف دقّة وصرامة منهجهم بقولهم: (إنَّ الإِسْنَادَ مِنَ الدِّينِ، وَأَنَّ الرِّوَايَةَ لا تَكُونُ إلا عَنِ الثِّقَاتِ، وَأَنَّ جَرْحَ الرُّوَاةِ بِمَا هُوَ فِيهِمْ جَائِزٌ، بَلْ وَاجِبٌ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْغِيبَةِ الْمُحَرَّمَةِ، بَلْ مِنَ الذَّبِّ عَنِ الشَّرِيعَةِ الْمُكَرَّمَةِ)[٢].

أما أهل البدع فلا تقبل رواياتهم، كما قال ابْن سيرِينَ:".. يُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ فَيُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ وَيُنْظَرُ إِلَى أَهْلِ الْبِدَعِ فَلا يُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ"[٣]. لما لأهل السنة من الأمانة والصدق والمراقبة الذاتية في القول والفعل، بخلاف المبتدعة.

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي-جرجي زيدان-١٠٣/٢-مكتبة الحياة-بيروت لبنان.

(٢) صحيح مسلم-المقدمة.

(٣) المصدر السابق-المقدمة.

ولذلك كان قبول الرواية أو ردها قائماً على السند، لأنه أصل الرواية، كما قال عَبْدَ اللَّه بْنَ الْمُبَارَك: "لَوْلا الإِسْنَادُ لَقَالَ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ". وقَال: "بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْقَوَائِمُ يَعْنِي: الإِسْنَادَ"[١].

كان سائر الذين كتبوا في السيرة قد اهتموا بجمع ما أمكنهم من الروايات ودونوها دون أن يشترطوا فيما يكتبونه، وأحالوا القارئ إلى الأسانيد التي أوردوها ليعرف الصحيح من الضعيف. ويتميز البخاري ومسلم باشتراطهما الصحة فيما خرجاه من روايات السيرة في كتابيهما الصحيحين. وكان المتخصصون في القرون الأولى يعرفون الرواة وأحوالهم والأسانيد وشرط صحتها، فكان بوسعهم الحكم على الروايات وتمييزها[٢].

أهم ما يميز الروايات التاريخية وجود الأسانيد التي تتقدم الرواية عادة، والتي يعتمد منهج المحدثين عليها بالدرجة الأولى في الحكم على الرواية بالقبول أو الرد. مما أدى إلى ظهور مكتبة ضخمة مليئة بمؤلفات تُعنى بتراجم الرواة وبيان أحوالهم وإمكان التقائهم ببعضهم أو عدمه، والحكم عليهم من خلال استقراء مروياتهم بالإضافة إلى رأي معاصريهم فيهم. وصار ما يعرف "بعلم الجرح والتعديل".

---

(١) المصدر السابق-المقدمة.

(٢) السيرة النبوية الصحيحة-أكرم ضياء العمري-١/١١.

إن الذي ينادي به أعضاء الجمعيات القومية من عدم الاعتناء بالاسناد، فيه خسارةٌ عظيمةٌ، ونسفُ جهود المئات من كبار العلماء الذين قدموا لنا هذه الخدمة الجليلة الخاصة بالتعامل مع الرواية التاريخية الإسلامية[١].

توظيف السيرة النبوية لخدمة مبادئ الجمعيات القومية:

إن كتابة أعضاء الجمعيات القومية العربية للسيرة النبوية، والاحتفال بذكرى المولد النبوي، كان لتحقيق أهداف ومبادئ جمعياتهم في الدعوة إلى الولاء القومي الجاهلي.

بعد أن استعرض مصطفى الشهابي ــ أحد أعضاء الجمعيات ــ سيرة النبي ﷺ، قال: "المسيحية التي تأمر بالمحبة والتعاطف والتسامح تتطلب من العربي الذي يدين بها أن ينسى المنازعات الدينية في الماضي، وأن يعتز كالمسلم بأنه ظهر في بني قومه رسول عربي جمع القبائل العربية في أمة واحدة، ونشرها في الأرض، وأوجب على المسلمين حب العرب، ويفرض على كل من دان بدينه محبة العرب، ويجعل ذل العرب ذلاً لدينه، لا يسع العربي المسيحي المتحلي بحب قومه إلا أن يجلّه، وأن يكبر فيه تلك العاطفة القومية الأصيلة، وإن لم يعترف بنبوته)[٢].

سخر أعضاء الجمعيات القومية سيرة الرسول ﷺ لخدمة المعتقد القومي، وقرروا أن السيرة النبوية هي سيرة عربية، فقال أمين بك نخلة[٣] ــ نصراني من

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة-أكرم ضياء العمري-١٢/١ (بتصرف يسير).

(٢) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها - مصطفى الشهابي - ٣٤٦-٣٤٧.

(٣) انظر الترجمة رقم (٩).

أعضـــاء الجمعيات ـــ: "لقد جعل محمد الدنيا لقومية العرب، وجعل الأخرى للغـــتهم[١]، ثم خـــاف أن ينشطر القوم، من وراء الرسالة، إلى فريق مؤمن بها، وفـــريق مؤمن بغيرها، فجمع (من أحب العرب فقد أحبني) حيث المخافة على الفرقة، وحيث المخافة من الشتات.

كأنمـــا الشرط عنده الحب للعرب، والحدب عليهم، والأخذ بنصرتهم، لا الدخـــول في دينهم. فعجب لرسول همه في الأرض أمر الله، وجر الخلائق إليه، من كل جنس كيف يعنى هذا العناء من أجل قوميته ويبث هذا البث"[٢].

ويســـتمر التأكيد على أن أبرز مبادئ الجمعيات القومية، هو طابع الولاء القومـــي بين العرب، يقول عفلق، عن علاقة العربي بالسيرة النبوية:"كل عربي

---

(١) ممـــا ينقله أعضاء الجمعيات القومية في تقديس القومية العربية بأن العربية هي لغة أهل الجنة، وقد وردت نصـــوص في هـــذا كحديـــث بن عباس مرفوعاً (لسان أهل الجنة عربي) و (أحبو العرب لثلاث..وكلام أهل الجنة عربي) وحديث أبي هريرة مرفوعاً (كلام أهل الجنة العربية) وقد أخرج هـــذه الآثـــار أبو نعيم الأصبهاني في صفة الجنة-١١٦/٢-رقم ٢٦٨و٢٦٩.وأخرجها الحاكم في المستدرك ٨٧/٤. والبيهقي في مناقب== ==الشافعي ٣٢/١-٣٣. والطبراني في الكبير ٣٤٨/١٢ -٣٤٩-رقم (١١٤٤٢) وابن الجوزي في الموضوعات ٤١/٢. وقد حكم علماء الحديث بأن هذه الأحاديث موضوعة، انظر:

١. العلل -ابن أبي حاتم٢٧٦/٢.
٢. الضعفاء الكبير-العقيلي-٣٤٨/٣-رقم١٣٨٠-ترجمة (العلاء بن عمرو الحنفي).
٣. المستدرك على الصحيحين -الحاكم -٨٧/٤-وقال الذهبي:وأظن الحديث موضوعاً.
٤. مجمع الزوائد-الهيثمي-٥٢/١٠.
٥. اقتضاء الصراط المستقيم-ابن تيمية-٣٩٢/١.
٦. سلسلة الحديث الضعيفة-الألباني-١٨٩/١و١٩٢-رقم-١٦٠و ١٦١.

(٢) مقدمة أمين بك نخلة على كتاب:نفسية الرسول العربي-لبيب الرياشي-٢١.

يستطيع أن يحيا حياة الرسول ولو بصورة جزئية على الأقل، طالما هو على علاقة وثيقة بالأمة التي أنجبت محمداً.

من هنا كان الشعر البعثي الذي هز مشاعر جيل بأكمله خلال فترة طويلة من الزمن :كان محمد كل العرب فليكن كل العرب اليوم محمداً"[١].

بل لقد اعتبر أعضاء الجمعيات القومية أن الإسلام كان في أول أمره نهضة عربية، والمسلمون هم العرب، حتى أصبح اللفظان مترافدين في كثير من الأحوال، وكان العرب أقرب الأمم للدخول في الإسلام لما اختصهم به دون غيرهم من الافتخار، وتمكن ذلك من الأذهان خصوصاً لّما أمر عمر بإخراج غير المسلمين من جزيرة العرب[٢].

وتغافلوا عن أن أوائل الحروب التي وقعت كان طرفها الكافر من العرب، روى البخاري في سؤالات هرقل لأبي سفيان ومما جاء فيها (قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ)[٣].

وأما عن إخراج عمر بن الخطاب غير المسلمين من جزيرة العرب فقد كان لأمر النبي ﷺ القائل: (**أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ**..)[٤].

---

(١) حزب البعث العربي الاشتراكي-مصطفى دندشلي-٦٦.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي-جرجي زيدان-٦٨/١.

(٣) صحيح البخاري-كتاب بدء الوحي-بَاب بَدْءُ الْوَحْيِ-رقم الحديث(٦).

(٤) المصدر السابق-كتاب الجهاد والسير-بَاب هَلْ يُسْتَشْفَعُ إِلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُعَامَلَتِهِمْ-رقم الحديث (٢٨٢٥).

قَالَ ابْنُ شِهَاب: "فَفَحَصَ عَنْ ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب حَتَّى أَتَاهُ الثَّلْجُ وَالْيَقِينُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: **(لا يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ)** فَأَجْلَى يَهُودَ خَيْبَرَ"(١).

وتحقيقاً لمبدأ التسامح الديني ـ كما يزعم أعضاء الجمعيات القومية العربية ـ أكد محمد جميل بيهم، من خلال كتابته في سيرة الرسول ﷺ، بأن (النبي) كان على اتصال بالمسيحيين، على غرار سائر مواطنيه، وقد حافظ محمد على ولائه للنصارى بعد البعثة وكان يجالس بعض أعاجمهم في مكة(٢).

ويستنبط أمين بك نخلة من وقائع سيرة الرسول ودعوته بأنه لا حرج في الدين من أن تتلاقى ملتا العرب: ملة القرآن وملة الإنجيل، حتى كأنما الإسلام إسلامان، واحد بالديانة، وواحد بالقومية واللغة، أو كأنما العرب مسلمون جميعاً حين يكون الإسلام هكذا هوى بمحمد، وتمسكاً بقوميته(٣).

ويورد محمد عزة دروزة مقولة يتناقلها أعضاء الجمعيات القومية العربية، وهي: "إن الرسالة المحمدية هي رسالة قومية، أي أنها استهدفت النهوض بالأمة العربية وإصلاحها وتقويتها وتوحيدها"(٤).

---

(١) موطأ الإمام مالك-كتاب الجامع-بَاب مَا جَاءَ فِي إِجْلَاءِ الْيَهُودِ مِنَ الْمَدِينَةِ-رقم الحديث (١٣٨٨).

(٢) فلسفة تاريخ محمدﷺ -محمد جميل بينهم-١٤٧.

(٣) مقدمة :نفسية الرسول العربي-لبيب الرياشي-١٩-دار الكشاف-بيروت-لبنان-الطبعة الثالثة-١٩٤٩.

(٤) سيرة الرسول-محمد عزة دروزة-٢٦/١-المكتبة العصرية-بيروت.

وأجمع أعضاء الجمعيات القومية العربية في سيرة الرسول ﷺ على هذا المبدأ: "إن الرسول ﷺ خلال دعوته قد جمع إليه بفضل العربية في رسالته، والعروبة في نعرته، هذه القلوب العربية من كل ديانة"(١).

فلم يكن في مقاصد الجمعيات القومية العربية حين الاحتفال بالمولد النبوي، أو الكتابة وإلقاء الخطب والمحاضرات عن سيرة الرسول ﷺ إلا تعزيز المبدأ القومي الجاهلي، قال أمين بك نخلة: "إن لغير المسلم في أرض العرب، أن لا يدين بدين (ابن عبدالله) وأن يخلب لبه، مثلاً، كتاب (لابن مريم) كل حرف منه يقطر رفقاً وصليب قعدت به دنيا، وقامت دنيا. وأما أن يكون فينا عربي، ومن لحمنا ومن دمنا، ثم يغدو لا يمت إلى محمد بعصبية، ولا إلى لغة محمد، وقومية محمد، فهو ضيف ثقيل علينا، غريب الوجه بين بيوتنا"(٢).

إن ما سبق كله يعزّز توظيف أعضاء الجمعيات القومية العربية كتابةَ السيرة النبوية، لتحقيق أهداف ومقاصد المبادئ القومية.

من خلال استعراض ما كتبه أعضاء جمعيات القومية العربية عن نبوة الرسول ﷺ وسيرته، يمكن أن يقسم البحث في مواقفهم عن التالي:

القسم الأول: وصف الرسول بصفات لا تليق بمقام النبوة

القسم الثاني: موقف الجمعيات من آيات النبي .

القسم الثالث: موقف الجمعيات من سيرة الرسول.

---

(١) مقدمة أمين بك نخلة على كتاب:نفسية الرسول العربي-لبيب الرياشي-٢٢.

(٢) المصدر السابق-لبيب الرياشي-٢٠.

القسم الأول: وصف الرسول بصفات لا تليق بمقام النبوة :

لقد وصف الله تعالى نبيه محمداً ﷺ، بما يليق بمقام الرسالة والنبوة، قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [١] ، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [٢].

وأمر الله المؤمنين بالتأدب الراقي مع نبيه حين مناداته، فقال جل جلاله: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [٣]، فمن معاني هذه الآية: نهي من الله للمؤمنين أن يدعوا رسول الله بغلظة وجفاء، وأمرهم أن يدعوه بلين وتواضع. قال مجاهد: "أمرهم أن يدعوا: يا رسول الله، في لين وتواضع، ولا يقولوا: يا محمد، في تجهم"[٤].

وقال قتادة: "أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ وأن يُبجّل وأن يُعظّم وأن يُسود، وفي قوله تعالى ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ قال مقاتل: "لا تسموه إذا دعوتموه يا محمد ولا تقولوا يا ابن عبدالله ولكن شرفوه فقولوا يا نبي الله يا رسول الله"[٥].

قال ابن كثير: "فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم والكلام معه وعنده"[٦].

---

(١) سورة المائدة-رقم الآية(٦٧).
(٢) سورة الأحزاب-رقم الآية(١).
(٣) سورة النور-رقم الآية(٦٣).
(٤) تفسير الطبري-١٥/١٧٧.
(٥) تفسير ابن كثير-٦/٦٧.
(٦) تفسير ابن كثير- ٦/٦٥.

وما التزمت الجمعيات القومية العربية الأدب مع النبي ﷺ عندما وصفه أعضاؤها بصفات لا تليق بمقام النبوة، وصفوه بأنه مؤسس الديمقراطية.

وكان المنتدى الأدبي يقيم احتفالاً بذكرى المولد النبوي، ومن مقاصد إقامة هذا الحفل بهذا اليوم ـ كما يقول الأعضاء ـ أن تنضوي جميع العناصر والأديان تحت جناحي القومية في نظام ديموقراطي حر، وفي جو من الإخاء والمساواة. وكان يُدعى لهذا الحفل السنوي رجالات السياسة والأدب والاجتماع[١].

وفي الاحتفال بالمولد النبوي، قال عبدالغني العريسي: في مثل هذا اليوم يولد النبي العربي القرشي مقيم الأسس الديمقراطية[٢].

كما ذكر أعضاء الجمعيات القومية أن المبدأ الديمقراطي كان يطبقه الرسول ﷺ أثناء دعوته وسيرته، وقال محمد جميل بيهم عن الرسول ﷺ: الداعي إلى مبادئه الديموقراطية لم يكن يقتصر عمله على الدعوة المجردة فحسب، بل كان يعمل على تطبيق تلك المبادئ مبتدئاً بنفسه، وبالإضافة إلى أنه جاء مصدقاً لمن كان قبله من الرسل والأنبياء كان يقول : (**لا تفضلوني على يونس بن متى**)[٣][٤].

---

(١) العرب والترك في العهد الدستوري العثماني - ٢٦٤.

(٢) مختارات المفيد-العدد ٩١٩-٢٩-شباط-١٩١٢-ص:٤٦.

(٣) فلسفة تاريخ محمد ﷺ-محمد جميل بيهم-٢١١.

(٤) الثابت في الصحيحين بلفظ (لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى)صحيح البخاري-كتاب-بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى) رقم الحديث(٣١٤٤). وبلفظ (مَنْ قَالَ-

يقـــرر أعضـــاء الجمعـــيات القومية بأن الرسول كان في ديموقراطيته مع أصحابه يحرص على أن لا يعاملوه معاملة السيد، فكان إذا أطروه يقول لهم: (**لا تطـــروني كمـــا أطـــرت النصـــارى ابـــن مريم، أنا عبدالله، فقولوا عبدالله ورسوله**)[١][٢].

فهِمَ علماءُ الإسلام من قول الرسول ﷺ: (لا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى) وما ورد في معناه: أن هذه الأحاديث تحتمل ما يلي:

١ـــ أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أنه أفضل من يونس فلما علم ذلك قال: (**أنـــا ســـيد ولـــد آدم**)[٣]، و لم يقل هنا أن يونس أفضل منه أو من غيره من الأنبياء.

٢ـــ أنه ﷺ قال هذا زجراً عن أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئاً من حط مرتبة يونس ﷺ، من أجل ما في القرآن العزيز من قصته، كقوله تعالى: ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ

=أَنَـــا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ)صحيح البخاري-كتاب التفسير-باب(وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)-رقم(٤٤٣١). وقال ابن تيمية: وأما ما يرويه بعض الناس أنه قال [لا تفضلوني على يونس بن متى]ويفسره باستواء حال صاحب المعراج وحال صاحب الحوت، فنقل باطل، وتفسير بـــاطل. فتاوى شيخ الإسلام-ابن تيمية-٢/٢٢٤. وقال ابن أبي العز: هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب التي يعتمد عليها.شرح العقيدة الطحاوية-١/١٦١.

(١) فلسفة تاريخ محمدﷺ -محمد جميل بينهم- ١٧٨.

(٢) صحيح البخاري-كتاب أحاديث الأنبياء-بَاب قَوْلِ اللَّهِ(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ)-رقم الحديث (٣١٨٩).

(٣) سنن الترمذي-كتاب تفسير القرآن-بَاب وَمِنْ سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ-رقم الحديث(٣٠٧٣) وانظر: سنن ابن ماجة-كتاب الزهد-بَاب ذِكْرِ الشَّفَاعَةِ-رقم الحديث(٤٢٩٨).

وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾[١].وقوله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[٢].

٣ــ أن في النهي في هذه الأحاديث تنبيهاً على أن غيره أولى أن لا يفضل أحد نفسه عليه، فهو نهي عام[٣].

وأما نهيه ﷺ، بقوله: (**لا تُطْرُوني كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**) فليس في الحديث ما ذكره أعضاء الجمعيات القومية من أن النهي كان من أمثلة ممارسة الرسول للديمقراطية، وإنما النهي بأن لا يُمْدح كَمَدْح النصارى حتى غالى بعضهم في عيسى ﷺ فجعله إلهاً مع الله، وبعضهم ادعى أنه هو الله، وبعضهم ابن الله. ثم أردف النهي بقوله (**أنا عبده**)[٤].

ولــذا قال ابن تيمية: "كان قصده ﷺ حسم مادة الشرك وتحقيق التوحيد لله وحده. ولما سجد له معاذ رضي الله عنه نهاه. وقال (**إنه لا يصلح السجود إلا لله**)[٥] فهذا شأن أنبياء الله وأوليائه"[٦].

---

(١) سورة الصافات-رقم الآيات(١٤٠-١٤٢)

(٢) سورة الأنبياء-رقم الآية(٨٧).

(٣) شرح صحيح مسلم-النووي-١٣٢/١٥.وانظر:

١. الشفا بتعريف حقوق المصطفى-القاضي عياض-٣٠٦/١-٣١٠.

٢. فتاوى شيخ الإسلام-ابن تيمية-٢٢٤/٢.

٣. فتح الباري-ابن حجر-٥٢١/٦.

(٤) فتح الباري-ابن حجر-١٥٤/١٢.

(٥) انظر: سنن ابن ماجة-كتاب النكاح-بَاب حَقِّ الزَّوْجِ عَلَى الْمَرْأَةِ-رقم الحديث(١٨٤٣).

(٦) مختصر الفتاوى المصرية/ابن تيمية-١٩٤-دار ابن القيم/السعودية/الدمام/الطبعة الثانية-١٤٠٦هـ

ولا علاقة لأخلاقه الكريمة ﷺ بديمقراطية القوميين التي استوردوها من الغرب والتي تجعل التحليل والتحريم من شأن الأكثرية، كما سبق بيانه.

ومما وصف أعضاء الجمعيات القومية العربية به الرسول ﷺ أنه أقام دعوته على مبادئ الحرية والمساواة والإخاء، قال عبدالغني العريسي: "مبادئ ثلاثة قام بها نبينا العظيم لخير هذه الأمة، كل ذلك على مبدأ الديمقراطية"(١).

ويقول رفيق العظم ــ من مؤسسي الجمعيات القومية العربية ــ: "إن الرسول هو مؤسس الشريعة الإسلامية، وأسسها على دعائم الحرية والعدالة والإخاء"(٢).

في المؤتمر الذي عقد في باريس أثناء اجتماع مؤسسي وأعضاء الجمعيات القومية العربية، قال عبدالغني العريسي في خطبته: إن النبي محمداً عليه الصلاة والسلام لم يخضع العرب بضغط ولا قوة ، إنما استطاع استمالتهم بمعقول القرآن وتحقيق مبدأ العدل والمساواة والإخاء ..)(٣).

وهذه المبادئ الثلاث التي يدندن بها القوميون هي مبادئ الماسونية، وهي شعار الثورة الفرنسية على الإقطاع الأوربي والدين النصراني المحرف، والتي نهجت الجمعيات القومية العربية نهجها وسلكت سبيلها، فزعم أعضاء الجمعيات القومية العربية أن الدعوة النبوية قد أقيمت على مبادئ الماسونية.

---

(١) مختارات المفيد-العدد ٩١٩-٢٩-شباط-١٩١٢-ص:٧٢.

(٢) أشهر مشاهير الإسلام- رفيق العظم-٢/١.

(٣) القومية العربية تاريخها وقوامها ومراميها-مصطفى الشهابي-٩٢. وانظر المؤتمر العربي الأول-٥٠.

والثابت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أن المبدأ الذي قامت عليه الدعوة النبوية ودعوة الأنبياء جميعاً، هو ما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾ (٢).

وهذا الأمر هو الذي دعا إليه المرسلون جميعاً، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ ﴾ (٣).

وكان الرسول ﷺ في سيرته يأمر من يدعوهم بتحقيق التوحيد واجتناب الطاغوت، كما قال وفدُ عبد القيس:..مُرْنَا بِأَمْرٍ نَعْمَلُ به، وَنَدْعُو إِلَيْه مَنْ وَرَاءَنَا، قَالَ: آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، الإِيمَان بِاللَّه، ثُمَّ فَسَّرَهَا لَهُمْ فَقَالَ شَهَادَة أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَام الصَّلاة..)الحديث(٤).

وقد بين الرسول ﷺ أن دعوة الناس للتوحيد، هو ما أُمر به، قال ﷺ: **(أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ**

---

(١) سورة الرعد-رقم الآية(٣٦).

(٢) سورة هود-رقم الآية(٢).

(٣) سورة النحل-رقم الآية(٣٦).

(٤) صحيح مسلم-كتاب الإيمان-بَاب الْأَمْرِ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ وَشَرَائِعِ الدِّينِ وَالدُّعَاءِ إِلَيْهِ وَالسُّؤَالِ عَنْهُ وَحِفْظِهِ وَتَبْلِيغِهِ مَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ-رقم الحديث(٢٣).

اللَّـــه وَيُقـــيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّ الإِسْلامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ)[١].

ومـــن الصفات التي وصف أعضاء الجمعيات القومية العربية، الرسول ﷺ بأنـــه مؤســـس الشـــريعة، أو صاحب الشريعة، قال جرجي زيدان:ظهر النبي صاحب الشريعة الإسلامية[٢]. وقال أيضاً: وسن ديناً جديداً وتبعه جمع غفير[٣].

إن وصـــف أعضـــاء الجمعيات للرسول ﷺ بهذه الصفات، يجعله شبيهاً بـــرجال الدعوات الذين ظهروا خلال التاريخ، وقد ذكر عبدالرحمن الشهبندر ـــ وهو أحد أعضاء الجمعيات ـــ أن ثورة الجمعيات القومية العربية، قد تعلمها أعضاء الجمعيات ،كما قال: "من الثائر مؤسس مجد العرب سيدنا محمد.."[٤].

وشـــبه أعضـــاء الجمعيات مبادئ الجمعيات القومية بالدعوة النبوية، قال محمود تيمور[٥]: لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة..إن القومية العربية لهي نبوة هذا العصر في مجتمعنا العربي.

---

(١) صحيح البخاري-كتاب الإيمان-بَاب (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ)-رقم الحديث(٢٤).

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي-جرجي زيدان١/٣٥و٣٨.وانظر: أشهر مشاهير الإسلام- رفيق العظم-١/٢.

(٣) أرمانوسة المصرية-جرجي زيدان-١٢.

(٤) عـــبدالرحمن الشـــهبندر- حياته وجهاده-حسن الحكيم-١٤٦-الدار المتحدة للنشر -بيروت-لبنان-الطبعة الأولى-١٤٠٥.

(٥) انظر الترجمة رقم (٦٤).

ورسالة هذه النبوة ـــ القومية العربية ـــ هي تجميع القوة وتكتيل الجبهة والانطلاقة بالطاقة البشرية في كيان المجتمع العربي نحو كسب الحياة. وإن كتاب العرب في أعناقهم أمانة، هي أن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة، يزكونها بأقلامهم، وينفخون فيها من أرواحهم ويعملون على أن تتكتل لها أسباب النماء والازدهار[١]. ولا يخفى أن هذا استبدال دين بدين، والله يقول: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[٢].

(١) مجلة العالم العربي-عدد ٢٧١٠ بعنوان (النثر والقومية العربية)-محمود تيمور.

(٢) سورة آل عمران-رقم الآية (١٩).

obeikandl.com

القسم الثاني: موقف الجمعيات من آيات النبي ﷺ:

في هـــذه الدراسة عن موقف الجمعيات القومية من آيات النبي ﷺ، تظهر مواقـــف أصـــحاب الاتجاه العقلي من أعضاء الجمعيات ، الذين سلكوا منهج التوفـــيق بـــين نصوص الشرع في إثبات المعجزات، وبين آراء ومواقف أعضاء الجمعيات من النصارى وغيرهم.

بـــيّن السلف أن آيات الأنبياء هي أفعال يفعلها الله مع الرسل، يخصهم بها ولا توجـــد لغيرهـــم، فيعـــلم العباد لاختصاصهم بها أن ذلك إعلام منه للعباد وإخـــبار لهم أن هؤلاء رسلي، كما يعلمهم بكلامه المسموع منه ومن رسله. فآيات الأنبياء هي: "علامات وبراهين من الله تتضمن إعلام الله لعباده وإخباره لهم"(١).

ولا ينحصر تقرير نبوة نبي من الأنبياء بآية تظهر على يديه، وإنما هي أحد علامـــات النـــبوة، وليس كل من ظهر على يديه علامة فهو نبي، وقد ثبت في الصـــحيح أن الدجال يجري الله على يديه أموراً يبتلي بها الناس، كما ثبت في الحديـــث: (..**فَـــيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ به وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا وَأَسْـــبَغَهُ ضُرُوعًا وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَـــرِفُ عَـــنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَيَمُرُّ**

---

(١) النبوات-ابن تيمية-٢٨٤-دار القلم-بيروت.

بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا أَخْرِجِي كُنُوزَكِ فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئاً شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ...](١).

وكان من هديه ﷺ ـ كما تقول عائشة ـ ، دعاؤه بهذه الدَّعَوَات: (..**وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ..**)(٢). ومع ما يخرج على يديه من أمور تفتن الناس إلا إنه دجال، وذلك بمعرفة حاله، لأن الكاذب يعرف ويميز عن الصادق، فقرائن أحوالهما تعرب عنهما، وتعرف بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة(٣).

وعرفت خديجة بنت خويلد أن ما حصل للرسول ﷺ عند نزول الوحي ليس فيه أذى عليه. كما قال الرسول ﷺ لها: (**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**)، قالت خَدِيجَةُ:(كَلاَّ وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ..)(٤).

وهرقل بعد مساءلة أبي سفيان فيما يأمر به وينهى عنه الرسولﷺ، قال: "إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ،

---

(١) صحيح مسلم-كتاب الفتن وأشراط الساعة-بَاب ذِكْرِ الدَّجَّالِ وَصِفَتِهِ وَمَا مَعَهُ-رقم الحديث (٥٢٢٨).

(٢) المصدر السابق-كتاب الذكر والدعاء-بَاب التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ الْفِتَنِ وَغَيْرِهَا-رقم الحديث(٤٨٧٧).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية-ابن أبي العز-١/١٤٠.

(٤) صحيح البخاري-كتاب بدء الوحي-بَاب بَدْءُ الْوَحْيِ-رقم الحديث(٣).

لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ"[١].

لقد ذكر ربنا في كتابه آيات كثيرةً لأنبيائه، مثال ذلك: ما قاله عن نبي الله صالح: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۘ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾[٢].

وعَنْ جَابِرٍ قَالَ: لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحِجْرِ، قَالَ: **(لا تَسْأَلُوا الآيَاتِ وَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ، فَكَانَتْ تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ، فَعَقَرُوهَا فَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا، وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا، فَعَقَرُوهَا، فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهْمَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ..)**[٣].

قال المفسرون عن قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ ﴾: أي قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به، وكانوا هم الذين سألوا صالحا أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم، وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر، يقال لها الكاتبة، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح

---

(١) المصدر السابق-كتاب بدء الوحي-بَاب بَدْءُ الْوَحْيِ-رقم الحديث(٦).

(٢) سورة الأعراف-رقم الآية(٧٣).

(٣) مسند الإمام أحمد-٣/٢٩٦. قال ابن كثير: هذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة وهو على شرط مسلم. انظر:تفسير ابن كثير-٣/٤٣٦.

العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا[١].

وحينما كابر فرعون وصد عن دعوة نبي الله موسى ﷺ، قال موسى لفرعون ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[٢]، فطلب فرعون من نبي الله موسى أن يأتي بالشيء المبين حقيقة ما يقول[٣] ويدعو إليه.

وأخبر الله في القرآن الكريم عن بعض الآيات الكونية التي حصلت للرسول ﷺ ومنها، حادثة الإسراء في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾[٤]، وانشقاق القمر كما في قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾[٥]، وثبت في السنة آيات حسية تدل على نبوته ﷺ، وفي أثناء مناقشة أعضاء الجمعيات القومية أشير إلى بعضها.

---

(١) تفسير ابن كثير-٣/٤٣٥-٤٣٦.

(٢) سورة الشعراء-رقم الآيات(٣٠-٣٣).

(٣) تفسير الطبري-١٩/٧٠.

(٤) سورة الإسراء-رقم الآية(١).

(٥) سورة القمر-رقم الآية(١).

الموقف العام للجمعيات من آيات النبي ﷺ الحسية:

مما سبق يتبين أن الآيات (الحسية) لأنبياء الله جميعاً ثابتةٌ بالكتاب والسنة، والجمعيات القومية العربية اتخذت موقف الرد والإنكار لجميع الآيات الحسية التي ظهرت على يدي الرسول ﷺ.

لقد رد أعضاء الجمعيات القومية العربية آيات النبي ﷺ الحسية، بزعمهم أنها تخالف أصول المنهج العلمي المادي، وهو العلم المبني على التجربة.

وقرروا أن المعجزات الحسية لا رصيد لها في ساحة العلم، قال فريد وجدي: "العلم الذي اتفق قادة الفكر الإنساني على تسميته بهذا الاسم، وهو جملة المقررات اليقينية على الوجود وكائناته مما سرت عليه أصول الدستور العلمي، فكل قول لا يحصل على تأييد هذا العلم أو على القليل لا يماشي أسلوبه، ويترسم حدوده، لا ينال من العقلية العصرية المكانة التي يراد أن تكون له[١].

ومن هذا المنطلق ذاته، قال محمد عزة دروزة: "إن دعوة الرسول جاءت بأسلوب جديد، وهو أسلوب مخاطبة العقل والقلب في الحث على الفضائل والتنفير من الرذائل. واعتبار الدعوة التي تقوم على هذه التقارير هي في غنى عن معجزات خارقة للعادة لا تتصل بها بالذات"[٢].

---

(١) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة-محمد فريد وجدي-٤١.

(٢) سيرة النبي-محمد عزة دروزة-١/٢٤٩-٢٥٠.

وأكد رشيد رضا على هذا المبدأ، بقوله: "إن أساس نبوة ورسالة الرسول ﷺ قد جعلها الله قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها ، لأن البشر قد بدأوا يدخلون في سن الرشد والاستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لا تباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون ، بل لا يكمل ارتقاؤهم واستعدادهم بذلك ، بل هو من موانعه"(١) .

بشبهة (إدعاء العلمية) ردت الآيات والأحاديث الصحيحة التي تنص على آيات حسية لرسولنا ﷺ، قال فريد وجدي عن القرن الذي ظهرت فيه الجمعيات بأنه قرن: "لا تروج فيها مسائل المعجزات. ولهذا كذب علماء أوروبا بكل المعجزات السابقة، لأننا في زمان لا يجدي فيه للاعتقاد إلا النور العقلي والدليل العلمي"(٢).

لقد اعتبر أعضاء الجمعيات رد الأوربيين لآيات الأنبياء دليلاً على التنور العقلي، وتغافلوا عن أن هؤلاء الأوربيين هم من سلالة من قال تعالى عنهم: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ﴾ (٣).

وطال إنكارُ أعضاء الجمعيات القومية، جميعَ الآيات الحسية من السيرة النبوية، وعن تعريفهم بالسيرة النبوية، قال حسين هيكل: "إن حياة محمد كانت

---

(١) الوحي المحمدي-رشيد رضا-٧٩-المكتب الإسلامي-بيروت-الطبعة العاشرة-١٤٠٥هـ.

(٢) المدنية والإسلام - محمد فريد وجدي - ٧١-٧٢

(٣) سورة النساء-رقم الآية(١٥٣).

كلها إنسانية سامية، وأنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق"[١].

إن هـذا الإقرار الذي ذكره هيكل في مقدمة كتابة السيرة عن النبي ﷺ، يـتفق مـع الفـرق الكلامية التي جعلت الطريقة في إثبات البنوة محصورة في المعجـزات وخـوارق العـادات[٢]. ويعيب هيكل منهجَ الفرق الكلامية في انتقاصهم لمقام النبوة، بأنهم عمدوا إلى الخوارق من ـ باب اللجوء ـ، لإثبات رسالته.

ولا ريب أن المعجزة ثابتة وصحيحة، ورد عن أَبِي هُرَيْرَة قوله: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **(مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)**[٣].

ولكـن الدلـيل غير محصور في المعجزات، فهناك الدليل النوعي وهو مما اسـتدل بـه النجاشـي على نبوة الرسول ﷺ، فإنه لما استخبرهم عما يخبر به واسـتقرأهم القرآن فقرؤوه عليه، قال: "وإن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة"[٤].

---

(١) حياة محمد-محمد حسين هيكل-١٢٩-الطبعة السادسة عشر-دار المعارف.

(٢) انظر على سبيل المثال: ١- شرح الأصول الخمسة-القاضي عبدالجبار-٥٦٨.
٢- الإرشاد-الجويني-٢٧٣-٢٧٨.
٣- دلائل إثبات النبوة-القاضي عياض.

(٣) صـحيح الـبخاري-كتاب فضائل القرآن-بَاب كَيْفَ نَزَلَ الْوَحْيُ وَأَوَّلُ مَا نَزَلَ-رقم الحديث(٤٥٩٨).

(٤) شرح العقيدة الأصفهانية-ابن تيمية-٩٣-مطبعة الاعتصام-القاهرة-١٣٨٥-وانظر: مسند الإمام أحمد-١/٢٠١-٢٠٢.

وهكذا تواطأ أعضاء الجمعيات القومية العربية على هذا المبدأ، الذي ينهج ـــ بـــزعمهم ـــ إلى وضع السيرة النبوية على حقيقتها البشرية، دون زيادةٍ أو نقصانٍ، أو استنادٍ إلى الصور المليئة بالخوارق[١].

قـــال رشـــيد رضـــا: "انتهى بذلك زمن المعجزات ودخل الإنسان بدين الإســـلام في سن الرشد ، فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان وتقـــويم مـــا يعـــرض للفطـــرة مـــن الميل عن الاعتدال في الفكر والأخلاق والأعمال"[٢].

إن إنكار أعضاء الجمعيات القومية العربية، للآيات الحسية يتمشى مع نمط الـــتفكير العقـــلي المادي الحديث. ولذا قال محمد جميل بيهم: إن المعجزات لا تقبلها الفلسفات الحديثة، ولا مناهج البحث المعاصرة[٣].

وممـــن رأى مـــن أعضـــاء الجمعيات في الآيات الحسية (المعجزات) مثار شـــبهات لينكرها، رشيدُ رضا قال فيها: "مثار شبهات وتأويلات كثيرة ، في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها ، وأمثال هذه الأمور تقع من أناس كثيرين في كـــل زمـــان والمـــنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين أكثر من المنقول عن

---

(١) فلسفة تاريخ محمد-محمد جميل بيهم-٢٠.

(٢) تفســـير المـــنار-رشـــيد رضا-١١/١،٢٢٧،١٦٠/٣١٤-٣١٥-الوحي المحمدي-٦٩-٧٠-١٨٤،٧١.

(٣) السيرة النبوية الصحيحة-أكرم ضياء العمري-٢/٦٢٣-مكتبة العبيكان-الرياض-الطبعة الثانية-١٤١٧هـــ.

العهديـــن العتيق والجديد وعن مناقب القديسين وهي من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر"[١].

وقـــد تـــلازم ـــ في مـــنهج الجمعـــيات القومية ـــ ردُّ الآيات الكونية (المعجـــزات) الثابتة بأحاديث صحيحة، مع الطعن بكتب السيرة الموثوقة، قال محمـــد جميل بيهم: "إن فريقاً من الأعاجم كانوا يشتهون أن لا تبقى سيرة النبي مجـــردة عن الخوارق والمعجزات، التي تحفل بها سير أنبيائهم في أديانهم السابقة، فـــراحوا ينســـبون لمحمد معجزات لم يرد ذكرها في القرآن، وينكر ـــ بيهم ـــ على أمثال البيهقي وأبي نعيم والقاضي عياض تكديسهم المعجزات فيما وضعوه من أسفار"[٢].

وقـــال عن جهود علماء السلف في نقل ونقد الروايات: "إن بعض رجال الأديان يجيزون لأنفسهم الأخذ بذلك التزويق ـــ المعجزات ـــ بغية حمل الناس عـــلى الإيمان بذويهم من أصحاب الرسالة على اعتبار أن الغاية تبرر الواسطة، واستناداً على علمهم بأن الشعوب هم كالأطفال يستطيعون السير بقدر ما فيها من عجائب"[٣].

---

(١) تفسير المنار -١١/١٥٥.

(٢) فلسفة تاريخ محمد ﷺ-محمد جميل بيهم-٢٢٤.وانظر:

١. محمد رسول البشر-عبدالله السمان-١٢٤.

٢. حياة محمد-محمد حسين هيكل-٦٨-٦٩.

(٣) فلسفة تاريخ محمدﷺ -محمد جميل بينهم-٢٢٤.

لقد تناقل أعضاء الجمعيات القومية مبادئ الثورات الملحدة، وقرروا أصولاً ومبادئاً في واقع المسلمين تخالف نصوص الكتاب والسنة. وهذا هو الذي يجب إنكـــاره وإبطاله. وأما نقل السلف ما ثبت بطريق صحيح من المعجزات الحسية فالإنكار عليهم منكر.

إن إنكـــار ما ثبت من معجزات حسية فيه فضلاً عن الإنكار على رسول الله والطعن في الدين اتهامٌ لشهود العيان من الصحابة رضوان الله عليهم بالكذب أو بضعف العقل وخلل التصور، بحيث نقلوا أخباراً تصوروها صحيحة وليست كذلـــك، ولا يخفـــى ما في الاتهامين من إجحاف وتناقض فقد قبلنا من شهود العـــيان أنفســـهم ما يتعلق بالعقيدة والشريعة.. وأنكرنا عليهم عندما تعرضوا لأخـــبار المعجزات الحسية، وإذا كانت العلةُ أن العقل المادي يرفض المعجزات، فإنـــه هذا يقضي برفض الوحي كله، وبرفض الإيمان بالله وبرسالاته، فلا مناص للمؤمن بالغيب من قبول الروايات الصحيحة المتعلقة بالمعجزات الحسية[1].

ولـــيس مرادي من إيراد هذه الشبهة مناقشةُ أعضاء الجمعيات القومية في مـــنهجهم بجعل العقل والعلم التجريبي حاكماً على نصوص الشريعة، لأن هذه الشبهة قد تولى الردَّ عليها شيخ الإسلام في عصره الشيخُ مصطفى صبري، الذي قـــال عن أصحاب المدرسة العقلية: (إن آثار العلم الفاتنة أثرت في العقول أبلغ تأثير، لكن هذه العقول لا قيمة لها عندنا، بل عند أصحابها أيضاً، لكونها عقول الذيـــن يقولون: (ليس للمنطق سلطان على الإنسان) ويقولون: (إن مجرد النظر

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة-أكرم ضياء العمري-٢/٦٢٣.

العقـــلي يكـــون دليل الأخطاء) فهي عقول الذين خرجوا على سلطان العقل والمنطق.

وهـــل يَعرِفُ أصحابُ تلك العقولِ أن عدم كون الدين مؤيداً بالتجربة لا يجعل العيب في الدين، بل في التجربة نفسها لكونها ميزاناً قاصراً على الماديات، والدين أرفع شأناً من أن يدخل في متناول هذا الميزان.

وإذا لزمت التجربة للدين فلا يجريه إلا العقل الذي هو أيضاً مِنْحةٌ للإنسان من العالم العلوي كالدين، والذي يسمونه العلم ويقوم على التجربة فإنما يكون نفعه في الماديات لا في المعنويات)[١].

وقال أيضاً: "مما لا يخفى على ذوى الأعين الساهرة، بعد أن سادت المادة في الغرب، وأخذ الشرق يهتدي بهدي الغرب، ما طرأ على القلوب الضعيفة من إنكار المعقولات والمغيبات..وأبرز مميزات هؤلاء الكتاب والعلماء المتفقين معهم أنهم ينكرون المعجزات الكونية، ويعتبرونها من المستحيلات"[٢].

---

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين-مصطفى صبري-١/٦١.

(٢) المصدر السابق-٣/٣و٥.وانظر عن منهج هذه المدرسة:

١. منهج المدرسة الحديثة في التفسير-فهد الرومي.

٢. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر-محمد محمد حسين.

٣. جهود المفكرين المسلمين المحدثين في مقاومة التيار الإلحادي-محمود عبدالحكيم عثمان.

٤. اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر-حمد بن صادق الجمال.

obeikandi.com

الموقف التفصيلي للجمعيات من الآيات الحسية الخصيصة برسول الله ﷺ:

لقد بينت أن الموقف العام للجمعيات القومية هو رد جميع الآيات الحسية. وليكـــتمل البيان أذكر بعض أقوالهم عن الآيات الحسية الثابتة بكتاب الله وسنة نبيه، ومنها:

١. حادثة انشقاق القمر:

وردت حادثة انشقاق القمر في كتاب الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾، وثبت في كتب الأحاديث الصحيحة حادثة انشقاق القمر، فمن ذلك:

ما ثبت عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه:(أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ الْقَمَرَ شِقَّتَيْنِ حَتَّى رَأَوْا حِرَاءً بَيْنَهُمَا)[١].

وقال عَبْداللَّه بْنِ مَسْعُود رَضِيَ اللَّه عَنْه: (انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شِقَّتَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ اشْهَدُوا)[٢].

فهذه النصوص الصحيحة تثبت أن القمر قد انشق حقيقة، وترد على فريد وجدي القائل عن انشقاق القمر، "...مما لا يمكن إثباته بدليل محسوس، أو مما يتأتى توجيهه إلى غير ما فهم منه"[٣].

---

(١) صحيح البخاري-كتاب المناقب-بَاب انْشِقَاقُ الْقَمَرِ-رقم الحديث(٣٥٧٩).

(٢) المصدر السابق-كتاب المناقب-بَاب سُؤَالِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُرِيَهُمُ النَّبِيُّ آيَةً-رقم الحديث(٣٣٦٤).

(٣) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة-محمد فريد وجدي-١٨٤. وانظر: تفسير الطبري-٢٧/ ٨٥.

إن حادثة انشقاق القمر في مكة كانت السبب في نزول آيات سورة القمر روى أنسُ بن مالك قائلاً: "سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ آيَةً فَانْشَقَّ الْقَمَرُ بِمَكَّةَ مَرَّتَيْنِ فَنَزَلَتْ ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ ﴾"[1].

وهذا تفسير بعض الصحابة للآيات، منهم :

أ ــ حذيفة بن اليمان ﷺ: عن أبي عبدالرحمن السلمي قال: نزلنا المدائن فكنا منها على فرسخ، فجاءت الجمعة، فحضر أبي وحضرت معه، فخطبنا حذيفة فقال ألا إن الله يقول ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت ألا وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم ﷺ .

ب ــ ابن عباس ﷺ: وفي قوله : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾ قال: "قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شقيه".

ج ــ عبدالله بن عمر ﷺ: في قوله تعالى:﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾ قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ، انشق فلقتين؛ فلقة من دون الجبل، وفلقه من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: (**اللهم اشهد**)[2].

---

(١) سنن الترمذي-كتاب التفسير-بَاب وَمِنْ سُورَةِ الْقَمَرِ-رقم الحديث(٣٢٠٨). وقال: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) انظر: تفسير الطبري-٢٧/٨٦-٨٨.

١. دلائل النبوة-البيهقي-٢/٢٦٢-دار الكتب العلمية/بيروت-لبنان-الطبعة الأولى-١٤٠٥هـ

٢. تفسير ابن كثير-٧/٤٤٨-٤٥٠.

٣. فتح الباري-ابن حجر-٧/٢٢٥.

وبما سبق نقله من كلام الله وأحاديث رسول الله ﷺ وأقوال الصحابة يتضح أن من آيات الرسول ﷺ الكونية انشقاق القمر، وأن كفار أهل مكة سألوه آية، فأراهم انشقاق القمر، آيةً حجةً على صدق قوله، وحقيقةِ نبوته، فلما أراهم أعرضوا، وكذبوا، وقالوا: هذا سحر مستمر، سحرنا محمد..وإن ير المشركون علامة تدلهم على حقيقة نبوة محمد، ودلالة تدلهم على صدقه فيما جاءهم به عن ربهم، يعرضوا عنها، فيولوا مكذبين بها منكرين أن يكون حقاً يقيناً، ويقولوا تكذيباً منهم بها، وإنكاراً لها أن تكون حقاً: هذا سحر سحرنا به محمد[1].

وقال ابن كثير: قد اتفق العلماء مع بقية الأئمة على أن انشقاق القمر كان على عهد رسول الله ﷺ. وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أي انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات[2].

وأما عن موقف الجمعيات القومية من آية انشقاق القمر، فقد كان ردُّ الأحاديث الصحيحة الثابتة، و لم يسلم بها الأعضاء، والآيةُ المثبتة للحادثة أولوها.

---

(١) تفسير الطبري-٢٧/٨٤و٨٧.وانظر:

١. الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ -القاضي عياض-١/٣٩٧.

٢. الشمائل المحمدية-ابن كثير-١٤٥.

٣. فتح الباري-ابن حجر-٧/٢٢٥.

٤. فتح القدير-الشوكاني-٥/١٢٠-دار المعرفة-بيروت-لبنان.

(٢) الشمائل المحمدية-ابن كثير-١٤٥. وانظر: تفسير ابن كثير-٧/٤٤٧.

قال رشيد رضا: "لا يشك عاقل من المؤمنين وغيرهم أن خلقه تعالى للسموات وأجرامها في غاية الإبداع والنظام لا تفاوت فيه ولا خلل، وأن سنته تعالى في الخلق لا تتبدل ولا تتحول، فلا يصدق خبر وقوع تغير فيها إلا بخبر قطعي ثابت مثل ثبوتها وثباتها كآيات الرسل التي أخبر الله تعالى بها. وعن سندها وروايتها، قال رضا: "لو وقع لتوفرت الدواعي على نقله بالتواتر لشدة غرابته عند جميع الناس في جميع البلاد ومن جميع الأمم"[١].

وهذا الرأي الذي قال به رشيد رضا، يسير وفق المنهج الذي قرره بأن محمداً لم يَدْعُ أحداً من الناس، ولا أمة من الأمم إلى الإيمان برسالته بأن قدم بين يدي دعواه خارقاً من خوارق الأفعال مثل قلب عين من الأعيان إلى عين أخرى[٢].

ويسير محمد فريد وجدي على منهج رشيد رضا وغيره، يقول:"إننا نحرص فيما نكتبه في هذه السيرة، على أن لا نسرف في صرف كل حادثة إلى ناحية الإعجاز، ما دام يمكن تعليلها بالأسباب العادية، حتى ولو بشيء من التكلف، مسايرة لمذهب المبالغين في التثبت، والمحافظين على إقامة الدستور العلمي، ثقة منا بأن بحثاً لا تحترمه النخبة المثقفة، ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى

---

(١) مجلة المنار-المجلد ٣٠-الجزء الرابع-ص:٢٦٧والمجلد ٣٠-الجزء الخامس-ص: ٣٦٣. وقد استدل رشيد رضا بما استدلت به الفلاسفة في إنكار الحادثة -انظر: فتح الباري-ابن حجر-٧/٢٢٤.

(٢) الوحي المحمدي-رشيد رضا. وانظر: فلسفة سيرة محمد -جميل بيهم-٢٢٥. قال ابن كثير: شوهد انشقاقه في كثير من بقاع الأرض، ويقال: إنه أرخ لذلك في بعض بلاد الهند..) البداية والنهاية-٣/١٢٠.

في عـــرض المســـائل وتحليـــلها، لا يمكن أن يؤدي إلى ما قصد منه من الخدمة العامة"[١].

وقد تناول محمد عزة دروزة حادثة انشقاق القمر، بعد أن قرر مبدأ إنكار المعجزات الحسية، وقال: إن الله عز وجل امتنع عن إظهار المعجزة على يد النبي إجابة على تحدي الكفار، وتعليلاً صريحاً لذلك وهو أن الأمم السابقة قد كذبت بالآيات التي أظهرها الله على أيدي أنبيائه، وأنها لم تحقق المقصود منها[٢].

وقـــال: إن حكمة الله اقتضت ألا تكون الخوارق دعامة لنبوة سيدنا محمد ﷺ، وبـــرهاناً على صحة رسالته، وصدق دعوته، التي جاءت بأسلوب جديد؛ هو أسلوب لفت النظر إلى الكون وما فيه من آيات باهرة.. واعتبار الدعوة التي تقـــوم عـــلى هذه التقارير هي في غنىً عن معجزات خارقة للعادة لا تتصل بها بالذات[٣].

بعـــد عرض ما سبق تقريره عن الآيات الكونية عامة عند دروزة، قال عن انشقاق القمر: "إن الحادث لم يشر إليه ثانية في السور والفصول القرآنية المكية الـــتي نزلـــت بعـــد سورة القمر، وهي أكثر مما نزل قبلها، فهذا السكوت عن الحادث على خطورته، وخاصة إزاء تكرار تحدي الكفار قد يلهم وجاهة توجيه الذين لم يأخذوا بالروايات،وصرفوا العبارة القرآنية إلى أشراط الساعة كما هو المتبادر"[٤].

---

(١) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة-محمد فريد وجدي-١٨٤.

(٢) سيرة النبي-محمد عزة دروزة-١/٢٥٥.

(٣) المصدر نفسه-١/٢٤٩-٢٥٠.

(٤) المصدر نفسه-١/٢٥٠-٢٥٣.

لقد بينت في بداية المبحث اتفاق علماء الأمة على إثبات وقوع انشقاق القمر في عهد رسول الله ﷺ بناء على طلب الكفار، كما ثبت هذا في الأحاديث الصحيحة، وهو ظاهر التنزيل، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها، لأنها كانت آية ليلية. وأنها كانت بطلب النبي ﷺ من الله تعالى عند التحدي.

ـ وقد تقدم في الصحيح ـ أن أهل مكة هم الذين سألوا وطلبوا أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر فلقتين، وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال: "ألا إن الساعة قد اقتربت، وأن القمر قد انشق على عهد نبيكم ﷺ"[(١)].

وذكر السلف أن الذين أنكروا انشقاق القمر، قوم لم يُسلّموا تسليماً لنصوص الشريعة، وهم طوائف من الفلاسفة وغيرهم.

قال القاضي عياض: انشقاق القمر؛ فالقرآن نص بوقوعه، وأخبر عن وجوده، ولا يعدل عن ظاهر إلا بدليل، وجاء برفع احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة، ولا يوهن عزمنا خلاف أخرق منحل عرى الدين، ولا يلتفت إلى سخافة مبتدع يلقي الشك على قلوب ضعفاء المؤمنين، بل نرغم أنفه وننبذ بالعراء سخفه[(٢)].

وأصل الداء الذي وقع فيه أعضاء الجمعيات القومية في مسألة رد آية انشقاق القمر، هو تحكيم العقل في نصوص النقل الحكيم، والقدح في النقل

---

(١) جامع أحكام القرآن-القرطبي-١٢٦/١٧.

(٢) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ -القاضي عياض-٣٥٣/١. وانظر:

١. شرح صحيح مسلم-النووي-١٤٣/١٧.

٢. فتح القدير-الشوكاني-١٢٠/٥.

المتواتر، فوقعوا في ضلالتين؛ رد النص القرآني بالتأويل، وعدم قبول النقل الثابت من أحاديث الرسول ﷺ.

إن أعضاء الجمعيات لم يُحكِّموا العقل السليم في تدبر هذه الحادثة، إذ ليس القمر في مطلعه واحداً لجميع أهل الأرض فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين، وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابليهم من أقطار، أو يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال، ولهذا نجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض، وفي بعضها جزئية وفي بعضها كلية وفي بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلمها، ذلك تقدير العزيز العليم.

ثم آية القمر كانت ليلاً والعادة من الناس بالليل الهدوء وإيجاف الأبواب وقطع التصرف، ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئاً إلا من رصد ذلك[1].

وقال محمد حسن الذهبي عن الجمعيات القومية المغالية في قيمة العقل ودوره: "أعطت لعقلها حرية واسعة فتأولت بعض الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم، وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل، وليس هناك ما يدعو لذلك إلا مجرد الاستبعاد والاستغراب، استبعاد بالنسبة لقدرة البشر القاصرة، واستغراب لا يكون إلا ممن جهل قدرة الله وصلاحيتها لكل ممكن..وحملت بعض ألفاظ القرآن من المعاني ما لم يكن معهوداً عند العرب في

---

(١) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ -القاضي عياض-١/٤٠٠. وانظر: النبوات-ابن تيمية-٤٠٧.

زمن نزول القرآن، وطعنت في بعض الحديث تارة بالضعف وتارة بالوضع، مع أنها أحاديث صحيحة رواها البخاري ومسلم"[١].

٢. موقفهم من حادثة شق صدر الرسول ﷺ:

إن حادثة شق الصدر ثابتة بالأحاديث الصحيحة، روى أَنس بْن مَالك رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ أَتَاهُ جبْرِيلُ ﷺ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَان فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبه، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ منْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَان منْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ منْ ذَهَب بمَاء زَمْزَمَ، ثُمَّ لأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ في مَكَانه. وقال أنس بن مالك وهو راوي الحديث: "وَقَدْ كُنْتُ أَرَانِي أَثَرَ ذَلكَ الْمخْيَط في صَدْرِه"[٢].

وثبتت حادثة شق الصدر أيضاً في ليلة الإسراء، قَالَ أَنَسُ بْنَ مَالك: ـ لَيْلَةَ أُسْرِيَ برَسُول اللَّه ﷺ منْ مَسْجد الْكَعْبَة ـ: أَنَّهُ جَاءَهُ ثَلاثَةُ نَفَر قَبْلَ أَنْ يُوحَى إلَيْه، وَهُوَ نَائمٌ في الْمَسْجد الْحَرَام، فَقَالَ: أَوَّلُهُمْ: أَيُّهُمْ هُوَ، فَقَالَ: أَوْسَطُهُمْ هُوَ خَيْرُهُمْ، فَقَالَ آخرُهُمْ: خُذُوا خَيْرَهُمْ، فَكَانَتْ تلْكَ اللَّيْلَةَ، فَلَمْ يَرَهُمْ حَتَّى أَتَوْهُ لَيْلَةً أُخْرَى فيمَا يَرَى قَلْبُهُ وَتَنَامُ عَيْنُهُ وَلا يَنَامُ قَلْبُهُ، وَكَذَلكَ الأَنْبيَاءُ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ وَلا تَنَامُ قُلُوبُهُمْ، فَلَمْ يُكَلِّمُوهُ حَتَّى احْتَمَلُوهُ فَوَضَعُوهُ عنْدَ بئْر زَمْزَمَ فَتَوَلاهُ منْهُمْ جبْرِيلُ فَشَقَّ جبْرِيلُ مَا بَيْنَ نَحْرِه إلَى لَبَّته حَتَّى فَرَغَ منْ صَدْرِه وَجَوْفه فَغَسَلَهُ منْ مَاء زَمْزَمَ بيَدِه حَتَّى أَنْقَى جَوْفَهُ ثُمَّ أُتيَ بطَسْتٍ منْ

---

(١) التفسير والمفسرون-الذهبي-٢/٥٤٩-٥٥٠-دار الكتب الحديثة/مصر-الطبعة الثانية/١٣٩٦هـ.

(٢) صحيح مسلم-كتاب الإيمان-بَاب الإسْرَاء برَسُول اللَّه ﷺ -رقم الحديث(٢٣٦).

ذَهَبٍ فِيهِ تَوْرٌ مِنْ ذَهَبٍ مَحْشُوًّا إِيمَانًا وَحِكْمَةً فَحَشَا بِهِ صَدْرَهُ وَلَغَادِيدَهُ ـــ يَعْنِي عُرُوقَ حَلْقِهِ ـــ ثُمَّ أَطْبَقَهُ ثُمَّ عَرَجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا...)[١].

قال ابن حجر: "إن جميع ما ورد من شق الصدر، واستخراج القلب، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك[٢].

قال القرطبي: "لا يلتفت لإنكار الشق ـــ ليلة الإسراء والمعراج ـــ لأن رواته ثقات مشاهير"[٣].

أما أعضاء الجمعيات القومية فمنهم من لم يتعرض لذكرها أصلاً، وممن قال عنها: "لا يمكن إثباته (الشق) بدليل محسوس، أو مما يتأتى توجيهه إلى غير ما فهم منه"[٤]. وقال فيليب حتي: "إنها من الروايات الشعبية التي أغنت حياة محمد وزينتها بالعجائب"[٥].

---

(١) صحيح البخاري-كتاب التوحيد-بَاب قَوْلِهِ (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)-رقم الحديث(٦٩٦٣).

(٢) فتح الباري-ابن حجر-١٣/-وانظر: السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة-محمد أبو شهبة-١/ ١٩٩.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم-القرطبي-١/٣٨٢-دار ابن كثير-دمشق-الطبعة الأولى-١٤١٧هـ.

(٤) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة-محمد فريد وجدي-١٨٤.

(٥) صانعوا التاريخ-فيليب حتي-١٥-دار الثقافة-بيروت. وهي دراسة قدمها فيليب حتي النصراني، عام ١٩٦٨، بجامعة برنستون وهي الجامعة الشهيرة في ميدان الدراسات الاستشراقية والعداء للإسلام والمسلمين. وقد ترجمت الدراسة إلى العربية.

obeikandi.com

وتأكيداً على مبدأ الاتفاق بين المنهج الاستشراقي والمبدأ القومي، يقرر حسين هيكل أن حادثة شق الصدر لا يطمئن المستشرقون[١] ولا جماعة من المسلمين ــ أصحاب المدرسة العقلية ــ كذلك إليها ويرونها ضعيفة السند[٢].

لقد سبق بيان أن حادثة شق صدر الرسول ﷺ مرويةٌ في صحيح البخاري ومسلم. و(هيكل) يتفق مع المستشرقين في رد الحادثة، ويرفض شهادة الصحابي الجليل؛ أنس بن مالك بأنه قد رأى أثر شق الصدر. ومن المقرر في عقيدة أهل السنة والجماعة أن الصحابة عدول.

وما يحتج به أعضاء الجمعيات في إنكار حادثة الشق أنها تعتمد على رواية طفلين[٣] لا يصح الأخذ بقولهما. ومن مسلمات الأمور أن رواية الأطفال كثيراً ما تكون بعيدة عن الكذب والاختلاق أكثر من رواية الرجال، ومع ذلك فقد تحدث الرسول ﷺ عن هذه الحادثة بعد البعثة حينما كان يسترجع ذكريات الطفولة ويقصها على أصحابه، وأخبر عن المرة الثانية التي وقعت له في ليلة الإسراء والمعراج[٤].

---

(١) مثال: درمنغم-حياة محمد-٤٨.

(٢) حياة محمد-محمد حسين هيكل-١٢٨.

(٣) انظر: المصدر السابق-١٢٨.

(٤) القول المبين في سيرة سيد المرسلين-محمد الطيب النجار-٧١-دار اللواء-الرياض-١٤٠١ هـ.وانظر:

١. السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة-محمد أبو شهبة-١/١٩٩-٢٠٣.

٢. السيرة النبوية الصحيحة-أكرم ضياء العمري-١/١٠٤.

٣. موقفهم من نزول المسيح عيسى عليه السلام:

ومن آيات نبوة محمد ﷺ إخباره بما سيقع من أمور مستقبلية[١]، ومن ذلك نزول المسيح عيسى بن مريم رسول الله عليه السلام.

وقد ثبت أن المسيح سينزل في آخر الزمان بالأحاديث المتواترة، ونقلها الخلف عن السلف، وقال الطبري: (تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: ينزل عيسى بن مريم، فيقتل الدجال، ثم يمكث في الأرض مدة)[٢].

ومن هذه الأحاديث الصحيحة، قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: **(لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ)**[٣].

رد أعضاء الجمعيات هذه الأحاديث وفي جملتهم رشيد رضا قال: "ليس في القرآن نص صريح بأنه ينزل من السماء، وإنما هذه عقيدة أكثر النصارى، وقد حاولوا في كل زمان منذ ظهور الإسلام إلى الآن بثها في المسلمين"[٤].

---

(١) شمائل الرسول-ابن كثير-٣٧٢-دار القبلة-المملكة العربية السعودية-جدة-الطبعة الثانية-١٤٠٩هـ.

(٢) تفسير الطبري-٦/٤٥٥-٤٥٨. وممن نقل التواتر:

١. ابن كثير-تفسير ابن كثير-١/٦١٥-٦٢١.

٢. ابن حجر-فتح الباري-٦/٤٩٣.

٣. محمد بن أحمد السفاريني-لوامع الأنوار البهية-٢/٩٤-٩٥.

٤. التصريح بما تواتر في نزول المسيح-محمد أنور شاه الكشميري-المطبوعات الإسلامية-حلب.

(٣) صحيح البخاري/كتاب المظالم والغصب/بَاب كَسْرِ الصَّلِيبِ وَقَتْلِ الْخِنْزِيرِ/رقم الحديث(٢٢٩٦).

(٤) تفسير المنار-رشيد رضا-٢٨/٧٥٦.

إن هذا الرأي يعتبر من أمثلة أقوالهم في رد الأحاديث الصحيحة المتواترة، ولـذا أنكر الشيخ أحمد شاكر، على أصحاب هذه المناهج العقلية، بقوله: "لقد لعـب المجـددون، أو المجردون، في عصرنا الذي نحيا فيه، بهذه الأحاديث الدالة صـراحة على نزول عيسى ابن مريم عليه السلام، في آخر الزمان، قبل انقضاء الحـياة الدنيا، بالتأويل المنطوي على الإنكار تارة، وبالإنكار الصريح أخرى، ذلـك أنهـم ـ في حقيقة أمرهم ـ لا يؤمنون بالغيب، أو لا يكادون يؤمنون وهي أحاديث متواترة المعنى في مجموعها، يعلم ما فيها من الدين بالضرورة. فلا يجديهم الإنكار ولا التأويل"[١].

٤. موقفهم من حنين الجذع، ونبوع الماء من بين يديه ﷺ:

انطلاقاً من إنكار كل ما لا يخضع للعلم التجريبي، قرر محمد فريد وجدي أن بداءة العقل وقواعد العلم، صارفة النظر عن المعجزات وإظهار المدهشات[٢] ولهذا لا تجدي في العقل معجزة، ولا تنفع فيه غريبة[٣].

ومـن هـذه المعجزات التي ردها أعضاء الجمعيات القومية العربية، حنين الجذع ونبوع الماء بين يديه ﷺ[٤].

---

(١) مسند الإمام أحمد-تحقيق أحمد شاكر-١٢/٢٥٧-التعليق على الحديث رقم (٧٢٦٧).

(٢) المدنية والإسلام-محمد فريد وجدي-٧١-٧٢-المكتبة التجارية الكبرى -مصر-١٣٥٣هـ

(٣) المصدر السابق-٧١-٧٢.

(٤) فلسفة تاريخ محمد ﷺ-محمد جميل بيهم-٢٢٤.وانظر:

١. محمد رسول البشر-محمد عبدالله السمان-١٢٤.

٢. حياة محمد-محمد حسين هيكل-٧٤.

لقـــد اعتبر رشيد رضا أن ما أكرم الله تعالى به نبيه من الآيات الكونية لم يكـــن لإقامة الحجة على نبوته ورسالته، بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه في الشدائد. وضرب مثالاً على هذه الآيات لإشباع العدد الكثير من الطعام القليل. والإرواء عند نفاذ ماء الجيش في الصحراء والحر الشديد[١].

وقـــال محمد عزة دروزة: إن كثيراً من الروايات المحتوية أخبار المعجزات النـــبوية ممـــا يحتمل التوقف ويدعو إلى التحفظ، وإلى القول: "إن أقوال بعض المؤلفين فيها تتضمن تكلفاً لا ضرورة له ولا طائل من ورائه"[٢].

قـــال مصـــطفى صبري رداً على أصحاب هذا المنهج: "ما أعجب عقلية الكتاب العصريين لا يرون في أنفسهم ـــ وهم صفوة الشرق ـــ ولا في كتاب الغـــرب ـــ وهـــم قادتهم ـــ معجزةً، فينكرون معجزات الأنبياء، ولا يرون في أنفســـهم قـــدرة وحماسة في حفظ أحاديث نبيهم..فينكرون صحة الأحاديث المحفوظـــة، ويحطـــون من قيمة الدافع الديني ويعللون أنفسهم بدعوى الطريقة العلمـــية في تألـــيف الكتـــب مـــن غير دليل لهم على هذه الدعوى غير تقليد الغربيين[٣].

لما كان المجال هو الحديث عن الروايات وصدق الأخبار، فإنني أنقل كلام ابـــن حجر، وهو من علماء الحديث، وذلك عند حديثه عن آيات النبوة، قال:

---

(١) الوحي المحمدي-رشيد رضا-٨٠-٨١.

(٢) سيرة النبي-محمد عزة دروزة-١/٢٥٤و٢٥٦.

(٣) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين-مصطفى صبري-٣/٥٤.

"إن مجمـــوع الروايات يفيد القطع بأنه ظهر على يده ﷺ من خوارق العادات شـــيء كثير، كما يُقطع بجود حاتم وشجاعة علي، وإن كانت أفراد ذلك ظنية ووردت مـــورد الآحـــاد، مع أن كثيراً من المعجزات النبوية قد اشتهر وانتشر ورواه العدد الكثير والجم الغفير، وأفاد الكثير منه القطع عند أهل العلم بالآثار، والعناية بالسير والأخبار، وإن لم يصل عند غيرهم إلى هذه الرتبة لعدم عنايتهم بذلـــك، بل لو ادعى مُدّعٍ أن غالب هذه الوقائع مفيدة للقطع بطريق نظري لما كـــان مســـتبعداً وهو أنه لا مِرية أن رواة الأخبار في كل طبقة قد حدثوا بهذه الأخـــبار في الجملـــة، ولا يحفـــظ عن أحد من الصحابة ولا من بعدهم مخالفة الراوي فيما حكاه من ذلك ولا الإنكار عليه فيما هناك فيكون الساكت منهم كالناطق[1].

إن الآيات التي ردها أعضاء الجمعيات قد رويت بأحاديث ثابتة عن رسول الله ﷺ، وفيما يلي تفصيلها:

أحاديث حنين الجذع للرسول ﷺ:

ثبت في صحيح البخاري: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعٍ، فَلَمَّا اتَّخَذَ الْمِنْبَرَ، تَحَوَّلَ إِلَيْهِ، فَحَنَّ الْجِذْعُ فَأَتَاهُ، فَمَسَحَ يَدَهُ عَلَيْهِ"[2]. قال البيهقي: "قصة حنين الجذع من الأمور الظاهرة التي حملها الخلف عن السلف، ورواية الأخبار الخاصة فيها كالتكليف."[3].

---

(١) فتح الباري-ابن حجر-٦/٦٧٣-٦٧٤.

(٢) صحيح البخاري-كتاب المناقب-بَاب عَلاَمَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلاَمِ-رقم الحديث(٣٣١٨).

(٣) فتح الباري-ابن حجر-٦/٦٩٨.

قال ابن كثير: "حنين الجذع شوقاً إلى رسول الله ﷺ وشفقاً من فراقه، وقد ورد من حديث جماعة من الصحابة بطرق متعددة تفيد القطع عن أئمة هذا الشأن وفرسان هذا الميدان، بوقوع ذلك عند أئمة هذا الفن، وكذا من تأملها وأنعم فيها النظر والتأمل مع معرفته بأحوال الرجال"(١).

أحاديث نبوع الماء من بين يديه ﷺ.

روى أَنَس بْن مَالك رضي الله عنه، قَالَ: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ وَحَانَتْ صَلاةُ الْعَصْر فَالْتُمِسَ، الْوَضُوءُ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بوَضُوء، فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَدَهُ فِي ذَلكَ الإِنَاء، فَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَوَضَّئُوا منْهُ فَرَأَيْتُ الْمَاءَ يَنْبُعُ مِنْ تَحْتِ أَصَابِعِه فَتَوَضَّأَ النَّاسُ حَتَّى تَوَضَّئُوا مِنْ عِنْدِ آخِرِهِمْ"(٢). ولما يتوافر في هذه الحادثة من أسباب القبول من جانب ثبوتها في كتب الصحاح، ومشاهدة الجمع الغفير من الصحابة لها، قال القاضي عياض: "ومثل هذا في هذه المواطن الحفلة والجموع الكثيرة، لا تتطرق التهمة إلى المحدث به، لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه، لما جبلت عليه النفوس من ذلك، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل، فهؤلاء قد رووا هذا، وأشاعوه، ونسبوا حضور الجماء الغفير له، ولم ينكر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم أنهم فعلوا وشاهدوه، فصار كتصديق جميعهم له"(٣).

---

(١) الشمائل المحمدية-ابن كثير-٢٤٣ و٢٥٤.

(٢) صحيح البخاري-كتاب المناقب-بَاب عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الْإِسْلَامِ-رقم الحديث(٣٣٠٨).

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى-١/٤٠٥.

القسم الثالث: موقف الجمعيات من سيرة الرسول ﷺ:

لقد كتب السلف سيرة الرسول ﷺ منذ ولادته وحتى وفاته، ونقلت إلينا بطـــرق منها: الصحيح كما في كتابي صحيح البخاري ومسلم، ومنها الحسن والضعيف كما في كتب السير والمغازي.

وتناولت هذه الكتب بيان السيرة النبوية إما في جميع جوانبها أو في جانب منها، كمثل الكتب التي تهتم بالشمائل المحمدية، أو المغازي..الخ

ومن الملاحظ أن الكتابة في السيرة لم تتوقف من العصر الأول حتى القرن الخـــامس عشـــر الهجري، وإنما الذي اختلف فهو منهج الكاتب، والهدف من الكتابة.

وفي هـــذا القســـم أذكر مواقف متفرقة لبعض أعضاء الجمعيات القومية العربية، من السيرة النبوية، تدل على التزييف العلمي للحقائق التاريخية المسندة:

أولاً: قبل البعثة:

أ ــ الحالة الأدبية عند العرب قبل البعثة:

انطلاقـــاً مـــن مبدأ تمجيد مآثر العرب، وذكر محامدهم عند بعض أعضاء الجمعـــيات القومـــية رأوا أن البعثة المحمدية لم تأتِ بجديد من أسباب النهضة والتقدم، إذ ظهرت النهضة قبل البعثة المحمدية، وكان نصيب البعثة هو التمهيد لقبول الدين أو لإكمال النهضة والتقدم.

قال جرجي زيدان ــ النصراني ــ في كتابه "تاريخ التمدن الإسلامي": (إن بلاد العرب كانت قبل الإسلام في نهضة أدبية دينية تمهيداً لقبول الدعوة الإسلامية والقيام بنصرتها)[١]. وكرر هذا القول ميشيل عفلق ــ النصراني ــ في محاضرة له بمناسبة مولد الرسول العربي، عندما تحدث عن النهضة العربية التي سبقت ولادة الرسول وبعثته[٢].

وقال محمد جميل بيهم عن هذا الأمر: (أصيبت الجاهلية بظهور بعض المفكرين على الجهر بآرائهم ضد الوثنية، ومنشطاً لغيرهم إلى التفكير بحرية في أمر صحتها، هذا إلى أنه شجع أيضاً اليهود والنصارى وغيرهم ليس على المزيد من حرية تسفيه عبادة الأوثان فقط، وإنما شجعهم كذلك على تعبير العرب بها. فإذا بقدسية الأصنام، وقد هوجمت من كل صوب تتزعزع في نفوس القوم حيثما كانوا، وإذا بأهل مكة يفسحون المجال للشكوك في صحة الوثنية، وإذا بمحمد يأتي في الوقت المناسب ويدعوهم إلى ما كانت تدعوهم إليه اليهودية والنصرانية من عبادة إله واحد)[٣].

ومعلوم أن اليهود والنصارى ما كانوا يدعون إلى إله واحد، وإنما دعاهم الرسول ﷺ إلى عبادة إله واحد كما قال تعالى:﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾[٤].

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي-جرجي زيدان-١/٣٤

(٢) في سبيل البعث-ميشيل عفلق-٤٢-٥٢. وانظر:دراسات في السيرة النبوية-محمد سرور-٢٠٠.

(٣) فلسفة تاريخ محمدﷺ -محمد جميل بينهم-٩٦.

(٤) سورة البينة-رقم الآية(٥).

إن هذا القول عن ـــ حالة الجاهلية ـــ ينكر فضل الله على عباده بالرسالة الإســـلامية، وأنها منقذة للعالم من الجهل والشرك والفساد وهذا بخلاف ما هو ثابـــت في الســـير. حيـــث أتى على العالم حين من الدهر فسدت فيه العقائد، وانتشرت الوثنية، وانتكست فيه الأخلاق، وسادت فيه الجهالات والخرافات[١].

وقـــد يطول الحديث عن هذه الانحرافات، ويكفي الإشارة إلى ما جاء في كـــتاب الله تعـــالى وفي سنة نبيه عن هذه الانحرافات. وسأخص بالذكر بلاد الحجاز والمفترض أن تكون أبعد بلاد العرب عن الانحرافات.

قبل بعثة الرسول ﷺ عم الفساد وطم، كما قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[٢]. فمن أنواع هذا الفساد الذي ظهر: إشراك الله بالعبادة قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾[٤].

---

(١) السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة-محمد أبو شهبة-١/٢٤١.

(٢) سورة الروم-رقم الآية(٤١).

(٣) سورة النجم-رقم الآيات(١٩-٢٣).

(٤) سورة الزخرف-رقم الآية(١٥).

فما كان من القبائل العربية إلا أن اتخذت أصناماً لها بيوت معظمة وسدنة وحجـــاب، ويُهدى لها، ويُطاف بها، فكان لقريش وبني كنانة (العزى) بنخلة، وكانـــت (الـــلات) لثقيف بالطائف، وكان (مناة) للأوس والخزرج ومن دان بدينهم[١]. ويكفي ما ذكره ابنُ مسعود عن عددها بقوله: (دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَحَوْلَ الْبَيْتِ ستُّونَ وَثَلاثُ مائَةِ نُصُبٍ فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُـــولُ: (**جَـــاءَ الْحَـــقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ**) (**جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ**)[٢].

ومن الانحرافات التجرؤ على حق من حقوق الخالق وهي مسألة التحليل والتحريم، كما قال تعالى منكراً عليهم هذا الفعل: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾[٤].

---

(١) انظر عن هذا الموضوع: تاريخ اليعقوبي-أحمد بن أبي يعقوب-١/٢٥٥.

(٢) صحيح البخاري-كتاب المغازي-بَاب أَيْنَ رَكَزَ النَّبِيُّ ﷺ الرَّايَةَ يَوْمَ الْفَتْحِ/رقم الحديث(٣٩٥٠).

(٣) سورة المائدة-رقم الآية(١٠٣).

(٤) سورة النحل-رقم الآية(١١٦).

وثبت في السنة ذكر أول من سيب السوائب، قال الرسول ﷺ في حديثه عن صلاة الكسوف: (**وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا** ــ حينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ ــ **وَرَأَيْتُ فِيهَا عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ وَهُوَ الَّذِي سَيَّبَ السَّوَائِبَ**)[١].

لقد ظهرت في المجتمع الجاهلي نفوس لم ترض عن واقعها فسعت للبحث عن الدين الحق ــ مما يؤكد انحطاط المجتمع الجاهلي قبل البعثة ــ ومن هذه النفوس زيد بن نفيل، فقد روى عَبْدَاللَّه بْن عُمَرَ رَضِي اللَّه عَنْهمَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَقِيَ زَيْدَ ابْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلْدَحٍ• قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الْوَحْيُ، فَقُدِّمَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ سُفْرَةٌ، فَأَبَى أَنْ يَأْكلَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ زَيْدٌ: إِنِّي لَسْتُ آكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ، وَلا آكُلُ إِلا مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّه عَلَيْه، وَأَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو كَانَ يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ، وَيَقُولُ: "الشَّاةُ خَلَقَهَا اللَّهُ، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الأَرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللَّه، إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ"[٢].

ويصف ابن عباس ما كانت عليه الجاهلية فيقول: (إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلاثِينَ وَمِائَةٍ فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ﴿ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾[٣].

---

١) صحيح البخاري-كتاب الجمعة-بَاب إِذَا انْفَلَتَت الدَّابَّةُ فِي الصَّلَاةِ -رقم الحديث(١١٣٦).

• بَلْدَحُ: واد قبل مكة من جهة المغرب. انظر:معجم البلدان-ياقوت الحموي-باب الباب واللام.

(٢) المصدر السابق-كتاب المناقب-بَاب حَدِيثُ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ-رقم الحديث(٣٥٤٠).

(٣) المصدر السابق-كتاب المناقب-بَاب جَهْلِ الْعَرَبِ-رقم الحديث(٣٢٦٢).

ومن تشريعات الجاهلية وأحكامها فيما يتعلق بالمرأة، ما أورده ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ ﴾[1] قال: (كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ، كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَتِه، إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي ذَلِكَ[2].

ويذكرهم القرآن بطبيعة علاقاتهم الاجتماعية قبل البعثة بقوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[3].

ولما وقف المتحدث الرسمي ـــ جعفر بن أبي طالب ـــ باسم المهاجرين أمام النجاشي في الحبشة، استعرض ما كان عليه أهل الجاهلية، فكان مما قال: (أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ

---

(١) سورة النساء-رقم الآية(١٩).

(٢) صحيح البخاري-كتاب-بَاب (لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا)-رقم الحديث(٤٢١٣).

(٣) سورة آل عمران-رقم الآية(١٠٣).

الزُّور، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَة، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ ..)[1].

فـــبعد هذه النصوص المثبتة من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ أيقال أن العرب كانوا في نهضة أدبية؟

وإن تقرير مبدأ (نهضة العرب) قبل البعثة، يعني إنكار نعمة الله على العالم بالرسالة الخاتمة، وفي مقابل هذا الجحود والإنكار نجد أعضاء الجمعيات يصفون المـــبادئ الماســـونية بأنها سبب رقي وتقدم العرب في العصر الحديث، كما قال رفيق العظم: "إن الأمم المسيحية لما كانت مسوقة في أوربا بيدي الكهنة والملوك مـــأخوذة الإرادة بقوة هاتين الفئتين، كانت ليس لها من الأمر إلا أن تدعى إلى عمل فتجيب، وتساق إلى حرب فتسير".

وبيّن رفيق العظم أن هذه الحال قد تغيرت، حينما قيدت هذه الأمم قيود تلـــك السلطة، وتمتعت بالحرية، وشاركت الحكام بالرأي، وأصبح الحكام بيد الشعب لا الشعب بيد الحكام، وصار الساسة وأرباب الحل والعقد محاسبين على كل عمل يأتونه[2].

ب ــ موقفهم من حادثة الفيل والطير الأبابيل:

أخبر القرآن عن حادثة الفيل وإرسال الطير على الجيش حتى أهلكهم، بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى

---

(١) مسند الإمام أحمد-١/٢٠١-٢٠٢.

(٢) مجموعة آثار رفيق العظم-(رسالة الجامعة الإسلامية)-٥٧.

تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝ ﴾ (١).

قال ابن كثير: "هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وردهم بشر خيبة..وكان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال"(٢).

أشار النبي ﷺ إلى حادثة الفيل، كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ﷺ قَالَ: لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِه ﷺ مَكَّةَ قَامَ فِي النَّاسِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: (**إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ**..)(٣).

وموجز ما ذكره المفسرون عن هذه الحادثة: "لما أراد أبرهة هدم بيت الله الحرام بجيش يقدمه فيل ضخم، أرسل الله عليهم طيراً من البحر، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحدا إلا هلك؛ وليس كلهم أصابت. وخرجوا

---

(١) سورة الفيل.

(٢) تفسير ابن كثير-٨/ ٥٠٣-٥١١-وانظر: الجامع لأحكام القرآن-القرطبي-٢٠/١٨٧-١٩٤. وقد روى الترمذي -كتاب المناقب-بَاب مَا جَاءَ فِي مِيلَادِ النَّبِيِّ ﷺ -رقم الحديث (٣٥٥٢)- عن قَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ قَالَ: "وُلِدْتُ أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ عَامَ الْفِيلِ" . وقال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيب. وأخرجه الإمام في المسند-٤/٢١٥-وذكره ابن حجر في الإصابة-٣/٢٥٩-رقم الترجمة (٧٢٣٥) وسكت عنه .وانظر:تاريخ خليفة بن خياط-٥٢.

(٣) صحيح البخاري-كتاب اللقطة-بَاب كَيْفَ تُعَرَّفُ لُقَطَةُ أَهْلِ مَكَّةَ-رقم الحديث(٢٢٥٤).

هـاربين يبـتدرون الطريق التي جاءوا منها. فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكـون بكل مهلك على كل سهل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت منه أنملة أتبعتها منه مدة قيحاً ودماً، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر[١].

إن الـنص القـرآني يقدم أدق تصوير لما حدث لجيش أبرهة، ولا تكاد الروايات التاريخية تخرج عن الوصف القرآني، إلا في تحديد جزئيات وتفصيلات يسيرة[٢].

وقد تناول أعضاء الجمعيات القومية العربية هذه الحادثة، من منطلق المنهج العقـلاني والاقتداء ببعض المستشرقين[٣]، فأنكروا وجود تلك الطيور، فقد قال محمـد جمـيل بيهم: "أبرهة لم ينجح في محاولته في هدم الكعبة، وعاد عن مكة خائباً لوباء انتشر بين جنده"[٤].

ونهـج محمد حسين هيكل هذا النهج فقال: "آن لأبرهة أن يوجه جيشه ليتم ما اعتزم فيهدم البيت ويعود أدراجه إلى اليمن، كان وباء الجدري قد تفشى بالجـيش وبدأ يفتك به، وكان فتكه ذريعاً لم يعهد من قبل قط، ولعل جراثيم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن-القرطبي-٢٠/١٩٥.

(٢) السيرة النبوية الصحيحة-أكرم ضياء العمري-١/٩٧.

(٣) انظر: حياة محمد ﷺ-لدرمنغم-٣٥-ترجمة عادل زعيتر.

(٤) فلسفة تاريخ محمد ﷺ -محمد جميل بينهم- ١٥٧.

وقـال الكواكـبي: كشفوا وجود المكروب وتأثيره الجدري وغيره من المرض، والقرآن يقول: {أرسـل علـيهم طـيراً أبابيل} أي مجتمعة متتابعة {ترميهم بحجارة من سجيل} أي من طين المستنقعات اليابس. انظر: طبائع الاستبداد-الكواكبي-٣١-٣٢.

الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر، وأصابت العدوى أبرهة نفسه، فأخذه الـــروع وأمر قومه بالعودة إلى اليمن..وكان الوباء يزداد كل يوم شدة ورجال الجيش يموت منهم من يموت كل يوم بغير حساب، وبلغ أبرهة صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض، فلم يقم إلا قليلاً حتى لحق بمن مات من جيشه"[١].

وفي الكلام عن هذه الحادثة يزيف جرجي زيدان حقائق التاريخ، فيقول: "اخـــتص الإســـلام برجال توفرت فيهم خصال النصر، وقد امتاز ذلك العصر بنبوغ رجال العظام كما امتاز عصر نابليون الكبير بقواد لم تلد فرنسا مثلهم.

وقد نبغ قواد نابليون على أثر الثورة الفرنسية، كما نبغ قواد الصدر الأول للإســـلام عـــلى أثر واقعة الفيل التي سطا بها الأحباش على الكعبة كانت وراء بـــروز قـــادة من العرب كخالد وأبي عبيدة وأبي بكر وعمر، وحركت ساكن العرب فأظهرت قواهم بالضغط والاحتكاك"[٢].

والملاحظ على قول زيدان كأن قريشاً قاومت الجيش، حتى كان من نتائج هذه الحادثة بروز القادة، ولكن ما أخبرت به كتب السير عن موقف أهل مكة تجـــاه غـــزو أبرهة للكعبة كان موقف العاجز، ولم تقم حروب أو معارك في أثـــنائها، ليعرف من خلاله زيدان بروز القادة، مع العلم أن من ذكرهم باتفاق أهل السير ما كانوا قد ولدوا عند الغزو، وبعضهم الآخر كان دون سن التمييز.

---

(١) حياة محمد-حسين هيكل-١١٩-١٢٠. وانظر:دائرة معارف القرن العشرين- فريد وجدي-٦/ ٢٥٦.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي-جرجي-١/٦٧.

أما ربطه بين واقعة الفيل والثورة الفرنسية التي أنتجت بونابرت ورجاله، فليس مستغرباً على النصارى العرب مثل هذه الأقوال والمفاهيم لأنهم لا يبصرون إلا بعيون قادة فرنسا، ولا يفكرون إلا بعقولهم[١].

ثانياً: العهد المكي:

أ ــ نزول الوحي:

لقد وصف جرجي زيدان تحنث الرسول في غار حراء، ونزول الوحي عليه بصفات مليئة بالمغالطات التاريخية والحقد الصليبي، قال على لسان أبي سفيان وهو يخاطب هرقل: "وبقينا نتحدث بحسناته ونعجب بأخلاقه حتى بلغ الأربعين، فسمعنا بانقطاعه عن الناس واعتزاله في شعب الجبال، حتى صار يأوي إلى الكهوف، وذكر أن الملاك جبرائيل ظهر له وعلمه الصلاة"[٢].

الثابت في سؤال هرقل لأبي سفيان عن حال الرسول ﷺ قبل البعثة كان عن صدقه، كما ثبت في صحيحي البخاري ومسلم[٣]. ولم يذكر ما ذكره زيدان. والثابت أن عائشة أخبرت عن تحنثه في غار حراء كما قالت: (كَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ الَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى

---

(١) دراسات في السيرة النبوية-محمد سرور-١٩٩.

(٢) فتاة غسان(١)-جرجي زيدان-٧٣. وانظر: تاريخ التمدن الإسلامي-جرجي زيدان-١/٣٦.

(٣) انظر:صحيح البخاري-كتاب بدء الوحي-باب بدء الوحي-رقم الحديث(٦). وصحيح مسلم كتاب الجهاد والسير-بَاب كِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى هِرَقْلَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ-رقم الحديث(٣٣٢٢).

أَهْلِه وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ)[١].

إن التحنث كان أمراً معروفاً عند قريش[٢]، وهي من بقايا الإبراهيمية[٣]. وكان الرسول ﷺ يتحنث في الغار شهراً من كل سنة وذلك قبل البعثة. ولكن عبارة زيدان يظهر فيها عزوف الرسول ﷺ عن مجتمع قومه وهروبه إلى شعف الجبال، وهذا المبدأ مقتبس من مبادئ النصرانية.

والمعـــروف من سيرة الرسول ﷺ أن الله قد عصمه من مشاركة قومه في الأعمال الجاهلية، وأما عن الأعمال الأخرى فقد كان الرسول ﷺ يرعى الغنم، كما شاركهم في حلف الفضول، وفي بناء الكعبة، وقد تولى إدارة تجارة خديجة بنت خويلد.

والانحـــراف الآخر قوله: (علمه الصلاة) ومما هو متفق بين علماء الملة أن الصـــلاة قد فرضت ليلة المعراج، كما في الحديث الذي يصف حادثة الإسراء والمعـــراج، وفيه : (**فَفَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلاةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: "مَا فَرَضَ اللَّهُ لَكَ عَلَى أُمَّتِكَ"؟ قُلْتُ" فَـــرَضَ خَمْســـينَ صَلاةً، قَالَ" "فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذَلِكَ" فَرَاجَعْـــتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا، فَقَالَ:**

---

(١) صحيح البخاري-كتاب بدء الوحي-باب بدء الوحي-رقم الحديث(٣).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام-١/٢٥٣.

(٣) انظر: البداية والنهاية-ابن كثير-٣/٧ .وفتح الباري-ابن حجر-١٢/٣٧١-٣٧٢.

"رَاجِعْ رَبَّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ" فَرَاجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: "ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لا تُطِيقُ ذَلِكَ" فَرَاجَعْتُهُ، فَقَالَ: (هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ لا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ) فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: "رَاجِعْ رَبَّكَ" فَقُلْتُ: اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي](١).

والذي علم جبريلُ محمداً أثناء نزول الوحي في غار حراء ـــ كما ثبت ـــ أنه قال له: "اقْرَأْ" قَالَ: (مَا أَنَا بِقَارِئٍ، قَالَ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: "اقْرَأْ" قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: "اقْرَأْ" فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ)(٢).

ب ـــ الأذى الجسدي على الرسول:

إن الروايات الدالة على وقوع الأذى على الرسول ﷺ أكثر من أن تحصى، وهي سنة واقعة على المرسلين وأتباع المرسلين، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾(٣).

---

(١) صحيح البخاري-كتاب الصلاة-بَاب كَيْفَ فُرِضَتِ الصَّلَاةُ فِي الْإِسْرَاءِ-رقم الحديث(٣٣٦).

(٢) المصدر السابق-كتاب بدء الوحي-باب بدء الوحي-رقم الحديث(٣).

(٣) سورة الأنعام-رقم الآية(٣٤).

وقال سَعْد بْن أَبي وَقَّاص: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه أَيُّ النَّاس أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ: (**الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِه، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِه صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِه رِقَّةٌ، ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِه..**)[1].

في كتابات أعضاء الجمعيات القومية عن السيرة، لم يأخذوا بالروايات التي تنص على وقوع الأذى على النبي ﷺ سواء أكان في مكة أم في المدينة، قال محمد عزة دروزة: "إن عدم ذكر القرآن شيئاً ما يدل على ذلك مع ذكره محاولات الزعماء أو فريق منهم التقرب إليه والتفاهم معه، وما يستفاد من الآيات القرآنية الكثيرة من وقوفه دائماً موقف القوي المستعلي فيما كان يتلوه من آيات فيها عنف وصفعات وبراهين دامغات. وتنديدات لاذعات يجعلنا نميل إلى التوقف في هذه الوقائع"[2].

إن منهج رد السنة وعدم الأخذ بها من المبادئ الظاهرة لدى الجمعيات القومية العربية، وعن موضوع وقوع الأذى الجسدي على الرسول ﷺ، فقد سئلت عائشة عن بعض ما لاقاه الرسول ﷺ من أذى المشركين أثناء تبليغ رسالة ربه، فقالت: "يَا رَسُولَ اللَّه! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ"؟ فَقَالَ: (**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِك، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ،**

---

(١) سنن ابن ماجة-كتاب الفتن-بَاب الصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ-رقم الحديث(٤٠١٣). وانظر: مسند الإمام أحمد-١/١٧٤.

(٢) سيرة النبي-محمد عزة دروزة-١/٢٩٦.

فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ•، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ قَالَ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فَمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا)[1].

ويحدث عبدالله بن مسعود، عما شاهده من وقوع الأذى على الرسول ﷺ فيقول:(بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ وَقَدْ نُحرَتْ جَزُورٌ بِالأَمْسِ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَى سَلا جَزُورِ بَنِي فُلانٍ فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي كَتِفَيْ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ. فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، قَالَ فَاسْتَضْحَكُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بَعْضٍ وَأَنَا قَائِمٌ ــ عبدالله بن مسعود ــ أَنْظُرُ لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالنَّبِيُّ ﷺ سَاجِدٌ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ)[2].

• قرن المنازل وهو قرن الثعالب، بسكون الراء: ميقات أهل نجد تلقاء مكة على يوم وليلة. انظر: معجم البلدان-ياقوت الحموي-باب القاف مع النون.

(١) صحيح مسلم-كتاب الجهاد والسير-بَاب مَا لَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ -رقم الحديث(٣٣٥٢).

(٢) المصدر السابق-رقم الحديث(٣٣٤٩).

وتمشياً مع هذا المبدأ لم يقبل محمد عزة دروزة، الحديث الوارد في سبب نزول سورة (المسد)، فقد قال دروزة: من الغريب أن أكثر الرواة والمفسرين، بل نكاد نقول جميعهم، رووا وقالوا: إن هذه السورة (المسد) نزلت بمناسبة قول أبي لهب للنبي (تباً لك ألهذا دعوتنا) وذلك حينما نزلت آية الشعراء ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ ..وأن ذلك القول معزو إلى أبي لهب والسورة قد جمعت امرأته معه، وهذا ما يجعلنا نتوقف في الرواية المشهورة عن سبب نزول السورة. لما تذكر الروايات أن الصلات بين النبي وعمه قبل البعثة كانت حسنة، وأن بيتيهما كانا متجاورين[1].

إن سبب نزول سورة (تبت) ثبت في صحيحي البخاري ومسلم، فقد قال بن عباس ﷺ: (لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادي: (**يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ، لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ**) قالُوا: "نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إلا صِدْقًا". قَالَ: (**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيد**) فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: "تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا فَنَزَلَتْ" ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ ﴾[2].

---

(١) سيرة النبي-محمد عزة دروزة-١/١٦٦.

(٢) صحيح البخاري-كتاب تفسير القرآن-بَاب(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ)-رقم الحديث(٤٣٩٧).وانظر:

صحيح مسلم/كتاب الإيمان-بَاب فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ)-رقم الحديث(٣٠٧).

إن عـــداء أبي لهـــب وزوجه للرسول ﷺ مما هو معروف ومشهور، ورد الـــروايات الصـــحيحة لسبب أنه مجاور للرسول ﷺ، وأن الصلات بينهما قبل البعثة كانت حسنة مبدأ غير سليم، وقد ظهر العداء بين الأبن وأبيه، كما ذكر القـــرآن عن نبي الله إبراهيم، حينما كان ولاء الأب لغير الله يفرض عليه معاداة ولده.

وانقلاب الألفة والمحبة إلى عداوات وبغضاء بعد البعثة، ليس خصيصاً بأبي لهب وزوجه بل هو عام لجميع مشركي قريش.

ج) إعراض المشركين عن الدين لأسباب اقتصادية:

إن سبب عدم دخول كفار قريش في الدين الإسلامي هو وقوفهم أمام دعوة التوحيد، بسبب من عبادتهم وتقديسهم للأصنام، والحجة التي كان يتمسك بها الكفار ساقها الله على ألسنتهم بقوله: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾[1].

ويصف القرآن الكريم حال المشركين عند دعوتهم إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا

---

(١) سورة الأعراف-رقم الآية(٧٠).

(٢) سورة الصافات-رقم الآية(٣٥).

جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ ﴾ (٢).

والمواقف الكثيرة التي ذكرها كتاب السير عن إعراض المشركين، بسبب تمسكهم بعقيدة الشرك وعبادة الأصنام، أكثر من أن تحصى، مثال ذلك ما ذكره عبدالله بن عمرو، بقوله: (حَضَرْتُهُمْ وَقَدِ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ يَوْمًا فِي الْحِجْرِ فَذَكَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ،فَقَالُوا: "مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ، سَفَّهَ أَحْلامَنَا، وَشَتَمَ آبَاءَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَسَبَّ آلِهَتَنَا، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ)(٣).

إن أعضاء الجمعيات القومية العربية عزوا سبب إعراض المشركين لها الخوف على المكاسب الاقتصادية التي كانت ترد عليهم عندما تؤم القبائل العربية مكة حيث الأصنام الثلاثمائة والستون المحيطة بالكعبة، وينجم عن ذلك حركة بيع وشراء تحقق الأرباح الوفيرة للملأ(٤).

ويقرر محمد جميل بيهم أن سبب العداء والحرب بين الرسول والمشركين كان بسبب الأمور الاقتصادية، فيقول: "إن الذين كانوا يحاربون محمداً بمكة لم

---

(١) سورة سبأ-رقم الآية(٤٣).

(٢) سورة ص-رقم الآيات(٤-٦).

(٣) مسند الإمام أحمد-مسند المكثرين من الصحابة-رقم الحديث(٦٧٣٩)

(٤) السيرة النبوية الصحيحة-أكرم ضياء العمري-١٤٧/١.

يكونـــوا يحاربونه استنكاراً لدينه، وإنما كانوا يفعلون ذلك خوفاً على منافعهم التي كانوا يجنونها من قيام الوثنية بمكة وهي منافع اقتصادية ومعنوية"[١].

ولم يكـــن هذا الإعراض من المشركين في بداية الدعوة، وإنما كان هذا في جميع أحوال السيرة، فيقول بيهم: إن قريشاً قد ناصبته العداء وظلت تؤذيه وتهم بقـــتله حتى اضطرته للجلاء عن مكة والهجرة إلى يثرب. لماذا؟ ألأنهم كانوا لا يزالون يؤمنون بصحة عبادة الأوثان؟ كلا.

وإنمـــا لأن العَرْضَ مُرْضٍ: بسبب الامتيازات فكانوا لا يؤدون إتاوة، ولا يـــتكلفون دفاعاً. يحكمون على الناس، ولا يحكمهم أحد فكان من الطبيعي أن يناضلوا نضال المستميت عن سيادتهم الروحية[٢].

هـ ــ بيعة العقبة:

لقد اعترض محمد فريد وجدي على أن تكون سرعة استجابة أهل المدينة لدعوة النبي ﷺ، بسبب من مجاورتهم لأهل الكتاب، يقول: "علّل كتّابُ السيرة المســـلمون هذا الأمر الجلل بأن اليهود الذين كانوا مجاورين لأهل يثرب كانوا يـــتحدونهم بقولهم لهم: إن نبياً يُرسل آخر الزمان من بلاد العرب، فإذا ما ظهر اتبعناه واتفقنا معه عليكم وقهرناكم، فلما بعث النبي ودعا للإسلام تذكر أهل يثرب ما كان يهددهم به أعداؤهم، وقال بعضهم لبعض هلم بنا إليه، لا يسبقنا الإسرائيليون إلى اتباعه. ثم ما كان منهم إلا أن تسارعوا إلى تلبية ندائه".

---

(١) فلسفة تاريخ محمدﷺ -محمد جميل بينهم-١٠٦-١٠٧.

(٢) المصدر السابق-٧٢.وانظر: التمدن الإسلامي-جرجي زيدان-١/١٧٥.

وهذا يُعترض عليه بحجة أنها: "لا تقنع الخبيرين بعوامل التطورات النفسية والاجتماعية، ولا تبين من حقيقة هذا الأمر الجلل ما يجب أن يعرف، وخاصة في هذا العصر الذي لا ينخدع أهله بالخلابات الكلامية".

وبيّن فريد وجدي أن أهل يثرب لم يدخلوا في الإسلام، ولم ينتدبوا للاضطلاع بالدفاع عنه، إلا بعد أن مضى على إعلان النبي له نحو ثلاث عشرة سنة، فأين كانوا من الإسلام طوال هذه المدة[1].

لقد ذكر المفسرون أن قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾[2] أنها من أسباب سرعة استجابة أهل المدينة لدعوة الرسول ﷺ، كما أفادت روايات السيرة.

وذلك أن أهل المدينة قالوا: إن مما دعانا إلى الإسلام ـــ مع رحمة الله تعالى وهداه لنا ـــ لمَا كنا نسمع من رجالٍ يهودٍ، وكنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وأرم، فكنا كثيراً ما نسمع ذلك منهم.

فلما بعث رسوله أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدونا به، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزل الآيات من البقرة ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ

---

(١) السيرة النبوية تحت ضوء العلم والفلسفة-محمد فريد وجدي-١٤٤.

(٢) سورة البقرة-رقم الآية(٨٩).

مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾[1].

وعن سبب تأخر اتصال أهل المدينة بالرسول ﷺ، فإن الفترة الزمنية كانت لمدة سبع سنوات، وليس ثلاث عشرة سنة، كما قال فريد وجدي، ويفهم هذا من حديث جابر أنه قَالَ: (مَكَثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظ وَمَجَنَّةَ وَفِي الْمَوَاسِمِ بِمِنًى يَقُولُ: **(مَنْ يُؤْوِينِي مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ)** حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ أَوْ مِنْ مُضَرَ ـــ كَذَا قَالَ ـــ فَيَأْتِيه قَوْمُهُ فَيَقُولُونَ أحذر غُلامَ قُرَيْش، لا يَفْتِنُكَ، وَيَمْشِي بَيْنَ رِجَالِهِمْ وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْه بِالأَصَابِعِ، حَتَّى بَعَثَنَا اللَّهُ إِلَيْه مِنْ يَثْرِبَ فَآوَيْنَاهُ وَصَدَّقْنَاهُ فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤْمِنُ به، وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ فَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْله فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلامه حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ إِلا وَفِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُظْهِرُونَ الإِسْلامَ)[2].

---

(١) سيرة ابن هشام-٢/٣٨. وقد صرح ابن سحق بالتحديث، وقال الذهبي: إذا صرح بالتحديث فحديثه حسن.ميزان الاعتدال-٣/٤٦٨ برقم (٧١٩٧)-الذهبي-.وقال الشيخ أحمد شاكر: له حكم المرفوع لأنه حكاية عن وقائع في عهد النبوة، كانت سبباً لنزول الآية، تشير الآية إليها.والراجح أن يكون موصولاً.لأن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري الظفري المدني: تابعي ثقة، وهو يحكي عن أشياخ منهم، فهم آله من الأنصار.تفسير الطبري-١/٣٣٢-رقم (١٥١٩)-تحقيق أحمد شاكر.وانظر:

١. زاد المسير في علم التفسير-ابن الجوزي-١/١١٤.

٢. تفسير ابن كثير-١/١٧٨.

٣. الدر المنثور-السيوطي-١/٢١٥-٢١٧.

(٢) مسند الإمام أحمد-٣/٣٢٢-٣٢٣، ٣٣٩-٣٤٠. بإسناد حسن كما قال ابن حجر-الفتح -٧/ ٢٦٣.

فـــإذا كانت الدعوة في مكة ثلاث عشرة سنة، منها ثلاث سنوات دعوة سرية، فيكون اتصال أهل المدينة بعد مضي سبع سنوات من إعلان الدعوة.

وهـــناك أمـــر آخر كان له أثره في تأخر أهل المدينة من الاستجابة لدعوة الرســـول ﷺ ، وهـــي المعـــركة الـــتي تسمى (بعاث) وقد وقعت بين الأوس والخزرج، ومما لا شك فيه أن الحرب شغل شاغل، وقد قالت عائشة: رَضِيَ اللَّه عَـــنْهَا (كَـــانَ يَوْمُ بُعَاثَ يَوْمًا قَدَّمَهُ اللَّهُ لِرَسُولِه ﷺ، فَقَدِمَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَقَدِ افْتَرَقَ مَلَؤُهُمْ وَقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُمْ وَجُرِّحُوا، فَقَدَّمَهُ اللَّهُ لِرَسُولِه ﷺ فِي دُخُولِهِمْ فِي الإِسْلامِ)[1] وكانت (بعاث) قبل الهجرة بخمس سنين[2].

إن سرعة استجابة أهل المدينة لدعوة الرسول ﷺ، ونصرتهم له، وقطعهم لحبال القبائل المعادية للإسلام، تعد من مناقب الأنصار، ولذا قال فيهم ﷺ: (**لَوْ أَنَّ الأَنْصَارَ سَلَكُوا وَادِيًا أَوْ شِعْبًا لَسَلَكْتُ فِي وَادِي الأَنْصَارِ وَلَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْـــتُ امْـــرَأً مِنَ الأَنْصَارِ** فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ـــ راوي الحديث ـــ مَا ظَلَمَ بِأَبِي وَأُمِّي؛ آوَوْهُ وَنَصَرُوهُ)[3].

وقـــول محمـــد فريد وجدي، أن هذه النصوص (لا تقنع الخبيرين بعوامل التطورات النفسية والاجتماعية) وذلك بسبب أن علمهم الاجتماعي مبنيٌّ على

---

(١) صحيح البخاري-كتاب المناقب-باب مناقب الأنصار-رقم الحديث(٣٤٩٣).

(٢) بُعـــاث: هو مكان عند بني قريظة. فيها وقعت الواقعة بين الأوس والخزرج. وقال الأزهري: يوم من أيام الأوس والخزرج معروف، وهو من مشاهير أيام العرب.تهذيب اللغة-٢/٣٣٤(بعث). فتح الباري-ابن حجر-٧/١٣٨.

(٣) صحيح البخاري-كتاب المناقب-باب مناقب الأنصار-رقم الحديث(٣٤٩٥).

أفكار مجموعة من علماء أوربا، أمثال دور "كايم" الذي وضع علم الاجتماع في منهجية مستقلة تقوم على النظرية والتجريب في آن معاً، وتنكر الأمور الغيبية والدوافع الإيمانية. و"جان جاك روسو" الذي أغفل دور الدين وأهمل أثره في توجيه المجتمع. وأصبحت أفكارهما من أهم دساتير الثورة الفرنسية الملحدة[١].

و ـ علاقة الرسول ﷺ بأهل الكتاب:

لقد بعث الله نبيه ـ هدى ورحمة ـ للعالمين جميعاً، عربهم وعجمهم، وأهل الكتاب مأمورون باتباع الرسول ﷺ والإيمان به، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾ ﴾[٣].

وقال النبي ﷺ: **(وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّد بيَده لا يَسْمَعُ بي أَحَدٌ منْ هَذه الأُمَّة؛ يَهُوديٌّ وَلا نَصْرَانيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ، وَلَمْ يُؤْمنْ بالَّذي أُرْسلْتُ به، إلا كَانَ منْ أَصْحَاب النَّار)**[٤].

---

(١) انظر: العلمانية-سفر الحوالي-١٧٠. وسلسلة تراث الإنسانية-مجموعة من الأساتذة-١/٥٧٧-الهيئة العامة للكتاب-مصر. ومدخل إلى علم السياسة-هارولد لا سكي-٣٠-ترجمة عز الدين محمد-القاهرة.

(٢) سورة النساء-رقم الآية(٤٧).

(٣) سورة المائدة-رقم الآية(١٩).

(٤) صحيح مسلم-كتاب الإيمان-بَاب وُجُوبِ الإِيمَانِ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ وَنَسْخِ الْمِلَلِ بِمِلَّتِهِ-رقم الحديث(٢١٨).

هذا ما قررته النصوص الشرعية، أما أعضاء الجمعيات القومية فيقولون: إن علاقـــة الرسول بأهل الكتاب كانت علاقة مجاملة ومؤانسة، يقول محمد جميل بيهم: "كان محمد على اتصال بالمسيحيين، على غرار سائر مواطنيه..وقد حافظ محمد على ولائه للنصارى بعد البعثة وكان يجالس بعض أعاجمهم في مكة"(١).

وأمـــا عن اليهود الذين كانوا بالمدينة فيرى محمد جميل بيهم أن لهم يداً في هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، يقول بيهم: (إن العلاقة الحسنة لا تخص النصـــارى بل تشمل اليهود، الذين رحبوا (بثورة) محمد على الوثنية وبانتشار الإسلام في يثرب، ولم يكن يعود ذلك إلى عاطفة دينية فحسب، بل كان يرجع على الأكثر لنـــزعة اقتصادية.

فاليهود ما إن رأوا الإسلام بدأ ينتشر في يثرب حتى رحبوا به على اعتباره فـــرعاً من اليهودية مفروضاً أم يكون مؤيداً لهم على الوثنية فيها، وحتى شجعوا بطرقهم الخاصة المسلمين من أهلها على إقناع محمد بأن ينتقل إلى يثرب"(٢).

ولعمـــق العلاقة بين الرسول ﷺ وأهل الكتاب عند بيهم، بيّن "أن صلاة النبي ﷺ إلى جهة بيت المقدس كانت مبالغة في مجاملتهم"(٣).

لقد استغل أعضاء الجمعيات القومية العربية هذه المفاهيم الخاطئة، من أجل الدعوة إلى مبادئ الجمعيات القومية العربية، مثال ذلك ما ذكره جرجي زيدان:

---

(١) فلسفة تاريخ محمدﷺ -محمد جميل بينهم-١٤٧.

(٢) المصدر السابق-١٠٥.

(٣) المصدر السابق-٢٢٩.

عن مبدأ الأخوة القومية (الجاهلية)، بقوله: "الصراع بين الإسلام والنصرانية بدأ تأثير هذا الصراع يتلاشى تدريجياً في عهد اختمار التمدن الحديث حيث انطلقت الحرية في أوربا، وتحررت أقلام رجال الفكر من نفوذ رجال الدين"[(١)].

ز ــ وفاة الرسول ﷺ :

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِي اللَّه عَنْهَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي مَرَضِه الَّذِي مَاتَ فِيه: (**يَا عَائِشَةُ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي**[(٢)] **مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ**)[(٣)].

إن حديث أكل الطعام المسموم، والذي قدمته يهودية من يهود خيبر، ورد في سنن أبي داود، وجاء فيه:أَهْدَتْ لَهُ يَهُودِيَّةٌ بِخَيْبَرَ شَاةً مَصْلِيَّةً سَمَّتْهَا فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ، مِنْهَا وَأَكَلَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: (**ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ، فَإِنَّهَا أَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ**] فَمَاتَ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ ابْنِ مَعْرُورٍ الأَنْصَارِيُّ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ: (**مَا حَمَلَكِ عَلَى الَّذِي صَنَعْتِ؟**) قَالَتْ: إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ الَّذِي صَنَعْتُ، وَإِنْ كُنْتَ مَلِكًا أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ، فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ فَقُتِلَتْ، ثُمَّ قَالَ فِي

---

(١) المصدر السابق-٢٤.

(٢) (الأبهر):عرق مستبطن الصلب والقلب متصل به، فإذا انقطع لم تكن معه حياة. قال الأصمعي: [وللفؤاد وجيب تحت آبهره...لدم الغلام وراء الغيب بالحجر].-غريب الحديث-ابن سلام الهروي-١/٧٤- (بهر).وانظر: فتح الباري-ابن حجر-٧/٧٣٧.

(٣) صحيح البخاري-كتاب المغازي-بَاب مَرَضِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَفَاتِهِ

وَجَعِــه الَّذي مَاتَ فِيهِ: (**مَازِلْتُ أَجِدُ مِنَ الأَكْلَةِ الَّتِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ فَهَذَا أَوَانُ قَطَعَتْ أَبْهَرِي**)[١].

وأمــا تأثــر النبي ﷺ من هذا السم فقد ورد في صحيح البخاري كما في حديــث عائشة السابق، وقد أخبر الصحابي أنس بن مالك عن ذلك فقال عن تأثيره: فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ[٢] رَسُولِ اللَّهِ ﷺ[٣].

إلا أن محمد جميل بيهم رد الحديث الثابت بقوله: « إن العلة من أكلة هذه الشاة المسمومة عاودت النبي ﷺ فكانت سبباً في وفاته، بيد أني غير مطمئن لهذه الرواية كما أني أشك في صحة ما يروى عن النبي ﷺ في هذه المناسبة (**أن أكلة خيبر لم تزل تعاودني وهذا زمن انقطاع أبهري**) » .

وهــذا الموقف يضاف إلى المواقف الكثيرة والمأثورة عن أعضاء الجمعيات مــن رد السنة النبوية. وسبب إنكار محمد جميل بيهم للحديث أن عقله لا يقبل كما يقول: أن يبقى مفعول السم قاتلاً بعد مرور هذه السنين[٤].

---

(١) ســنن أبي داود-كــتاب الديــات-بَاب فِيمَنْ سَقَى رَجُلًا سَمًّا أَوْ أَطْعَمَهُ فَمَاتَ أَيُقَادُ مِنْهُ-رقم الحديث(٣٩١٢). انظر: السيرة النبوية-ابن هشام-٣٨٩/٣.

الطبقات الكبرى-ابن سعد-١٠٧/٢.

(٢) لهوات: جمع لهاة، وهي اللحمة في سقف أقصى الفم.انظر:

النهاية في غريب الحديث والأثر-ابن الأثير-٢٤٨/٤(لها) . وفتح الباري-ابن حجر-٢٧٤/٥.

(٣) صحيح البخاري-كتاب الهبة-بَاب قَبُولِ الْهَدِيَّةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ-رقم الحديث(٢٤٢٤).

(٤) فلسفة تاريخ محمدﷺ -محمد جميل بينهم-٢٠٢-٢٠٣.

إن ثبوت الرواية وشهادة الصحابي أنس بن مالك ﷺ على تأثر النبي ﷺ بالسم، يردان على من استبعد الحادثة، وكذلك يُفهم من قول الرسول ﷺ: (**ما أزال**) أن تأثير السم لم يفارقه وفي سنة وفاته اشتد عليه ولذا قال: (**فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي**)[1]. ومما يؤيد هذا المفهوم أن الرسول ﷺ قد أعطي قوة في الصبر، قال عبدالله بن مسعود ﷺ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا! قَالَ: (**أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلانِ مِنْكُمْ**)[2].

ورغبة في الاختصار فقد يكون ما سبق بيانه عن موقف أعضاء الجمعيات القومية من سيرة الرسول ﷺ، كافياً بفضح زيف تلك المواقف المغرضة من سيرته ونبوته ﷺ.

---

(١) انظر: الشفاء بتعريف حقوق المصطفى-القاضي عياض-١/٤٤٦.

(٢) صحيح البخاري-كتاب المرضى-بَاب أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ-رقم الحديث(٥٢١٦).